

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والفكر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



عدد 430

ذكرى المولد النبوي الشريف

430

السنة الثانية والستون - ربيع الأول 1441 هـ / نونبر 2019م

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية
السنة الثانية والستون - ربيع الأول 1441 هـ / نونبر 2019 م



الملك محمد الخامس في مكتبه بالرباط، 1957 م. (من أرشيف الملك محمد السادس)



أسسها
جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376 هـ / 1957 م

”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصفة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تُعالج مختلف
الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا ولصيد الأمل في أن يلتفت
حولها دعاة الفكر والثقافة والإصلاح في هذه البلاد وغيرها
لتؤدّي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة “دعوة الحق” سبل النجاح والتوفيق.”

من الكلمة التي وجهها الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى “مجلة دعوة الحق” بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957 م

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لاتعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط
الموقع الإلكتروني: www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني: daawatalhak@mhai.gov.ma
هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة: 05 37 66 06 74
فاكس: 05 37 76 17 21
التوزيع : هاتف وفاكس: 05 37 76 32 10
الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط:
RIB : 225-810-0195092946510102-88
الاشتراكات في المجلة: الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 ده
الخارج : 300 درهم
شمن العدد : 15 ده
رقم الإيداع القانوني : 1981/3
الرقم الدولي : 1981PE0003
الإخراج الفني والطباعة: مطبعة الكرامة - الرباط

مدير المجلة:

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير:

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد



افتتاحية

إذا كان الاحتفاء بحياة العظماء إنما هو تخليد لمآثرهم وتذكير بفضائلهم وإبراز لآلائهم كنماذج إنسانية تقتفى، وقيم بشرية تحتذى، فإن الاحتفال بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ليس فحسب تكريما لشخصه الشريف كقامة إنسانية اختصت بالاصطفاء الإلهي، وتوجت برسالة الوحي الخالدة، بل هو استحضار حقيقي للمثل العليا، والفضائل المثلى التي جسدها في نفسه، وعلمها صحبه الكرام، وتناقلتها الأجيال عبر القرون والأزمنة، لتشكل إسهاما حقيقيا في بناء حضاري شامخ، على قيم ثابتة راسخة قوامها الرحمة الشاملة، وتكريم العنصر البشري تكريما يرفعه إلى أعلى مراتب النيابة عن الله في تحقيق مراده من إقامة العدل المطلق بين أبناء الإنسانية، دون تمييز لون أو عرق أو لغة أو انتماء... مع رحمة كونية تسكن شغاف القلوب وتُظِل مخلوقات الله جميعها. "ورحمتي وسعت كل شيء..." وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".

وقد أدركت الأمة الإسلامية أبعاد ما جسده هذا النموذج البشري الفريد بعد قرون من التجارب والمراس، والمد والجزر بين الحضارات، فاستنتت الاحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم، وتبارت في

الإكثار من الصلاة عليه، واستحضار شمائله، وتدافعت أشواق
النوابع، وقرائح الفحول في مدحه وتمجيده وتعظيمه، تمجيذا وتعظيما
وشكرا لمن أرسله وبعثه وجعله " على خلق عظيم".

ولعل الأمة المغربية من أكثر الشعوب الإسلامية تكريما وحبا
وتعظيما لهذا الرسول الكريم. فقد اتخذوا من الصلاة عليه أورادا تتلى
كل يوم في الزوايا، كما يتلى القرآن صباح مساء في كل مساجد
المملكة الشريفة.

واعنتى ملوك المغرب، خاصة منهم سلالة النبي صلى الله عليه
وسلم، بهذه الذكرى عناية خاصة، وأنفقوا عليها من حر مالهم،
وجندوا العلماء والخطباء لتدريس الشمائل المحمدية خلال شهر ربيع
الأول، وختم كتاب "الشفاء" للعلامة القاضي عياض اليعصبى، والتغني
بفضائل "سيد ولد آدم".

لأجل هذا خصصت أسرة المجلة هذا العدد للتذكير بمقاصد
الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لعل القارئ الكريم يجد فيه ما يشفي
نهمه في تمثيل فضائل هذا الرسول الكريم، الرحمة المهداة والنعمة
المرجاة، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليما...

رئيس التحرير

مقالات العدد

إحياء الرحمة المحمدية مقصد من مقاصد الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾

ذ. عبد الغني العمومري - فاس.

اعتاد المغاربة على الاحتفال كل سنة بذكرى المولد النبوي الشريف، وتعتبر هذه المناسبة محطة لإحياء واستذكار مكارم الأخلاق والجمال والكمال في شخصية الرسول ﷺ، باعتباره المثل الأعلى والقُدوة الحسنة للمسلمين في كل الأزمان والعصور. وإذا كان المجال لا يسع لذكر جميع خصاله وأوصافه ومنظومة أخلاقه ﷺ، فإنني سأقتصر على صفة الرحمة.

فالحق سبحانه وتعالى لم يصف أحداً من أنبيائه بهذه الصفة إلا النبي محمد ﷺ، فقد تحدث القرآن الكريم عن أربعة وعشرين نبياً، ووصفهم بأجمل الأوصاف، وأكملها، وعظم شأنهم في كل موضع ذكروا فيه، إلا أن لا أحداً منهم وصف بهذه الصفة، على كثرة صفاتهم الحميدة.

وعلاقة بالموضوع أعلاه، تقتضي المنهجية أن أقسمه إلى مبحثين رئيسيين، أتطرق في الأول لبيان معنى كونه ﷺ رحمة للعالمين، وذلك بتعريف الرحمة لغة واصطلاحاً، وبيان معنى قوله تعالى: «رحمة للعالمين». وأخصص الثاني لمظاهر الرحمة في الإسلام، في شخصية الرسول ﷺ أولاً، ثم في التشريع الإسلامي ثانياً.

1- محمد ﷺ رحمة للعالمين:

أ- تعريف الرحمة لغة واصطلاحاً:

الرحمة لغة: الرقة والتعطف والرفقة، يقال من ذلك رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه.¹

وقيل الرحمة في بني آدم عند العرب: رقة القلب وعطفه. ورحمة الله: عطفه وإحسانه ورزقه.²

والرحمة اصطلاحاً:

1- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، (تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين-بيروت، ط4، 1407هـ/1987م)، 1929/5. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، (دار الفكر، 1399هـ/1979م)، 498/2.

2- لسان العرب، ابن منظور، (دار صادر-بيروت، 1414هـ)، 231/12.

قال أبو البقاء الكفوي: "حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب، وتكون مبدأً للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان، والرحمة من الله تعالى مجاز عن نفس الإنعام".¹
وقال الأصفهاني: الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلانا. وإذا وصف بها الباري فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الأدمين رقة وتعطف.²

وقال ابن القيم: "الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقية. فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك".³

والرحمة من صفات الله سبحانه وتعالى، فهو القائل: ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁴، ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾⁵، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁶.

والرحيم من أسمائه الحسنی، قال تعالى: ﴿فَلْتَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾⁷، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾⁸.
ومن مظاهر رحمته تعالى بمخلوقاته جميعاً أن أنزل جزءاً منها من السماء إلى الأرض، قال ﷺ: «جعل الله الرحمة في مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه».⁹

1 - الكليات، الكفوي، (تحقيق: عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، ط2، 1419هـ/1998م)، ص471.

2 - مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، (تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم-دمشق، ط4، 1430هـ/2009م)، ص347.

3 - إغاثة اللهفان عن مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، (تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض- المملكة العربية السعودية)، 174/2.

4 - سورة الأعراف: الآية 55.

5 - سورة الحجر: الآية 56.

6 - سورة البقرة: الآية 63.

7 - سورة البقرة: الآية 36.

8 - سورة البقرة: الآية 142.

9 - رواه البخاري، كتاب: الأدب، باب: جعل الله الرحمة في مئة جزء، حديث رقم: 6000، (دار ابن كثير، ط1، 1423هـ/2002م)، ص1506.

ب- في معنى كونه ﷺ رحمة للعالمين:

أخبر الحق سبحانه وتعالى أنه أرسل نبيه رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾¹، وقد اختلف أهل التأويل في معنى هذه الآية، على النحو الآتي:

- في المقصود بالعالمين:

هل المقصود بالعالمين جميع العالم مؤمنا وكافرا؟ أم أريد بها أهل الإيمان خاصة دون أهل الكفر؟

قال ابن عباس رضي الله عنه: عني بها جميع العالم: المؤمن والكافر، فقد تمت الرحمة لمن آمن به في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن به عوفي مما أصاب الأمم قبل من الخسف والغرق. وقال آخرون: بل أريد بها أهل الإيمان دون أهل الكفر. فالمقصود بـ "العالمين" من آمن به وصدقه وأطاعه.²

وقال الماوردي في قوله تعالى: (للعالمين) وجهان:

- أحدهما: من آمن منهم، فيكون على الخصوص في المؤمنين إذا قيل إن الرحمة الهداية.
- الثاني: الجميع، فيكون على العموم في المؤمنين والكافرين، إذا قيل إن الرحمة ما رفع عنهم من عذاب الاستئصال.³

قال الطبري: وأولى القولين في ذلك بالصواب، القول الذي روي عن ابن عباس، وهو أن الله أرسل نبيه محمدا ﷺ رحمة لجميع العالم، مؤمنهم، وكافرهم. فأما مؤمنهم؛ فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به وبالعامل بما جاء من عند الله الجنة. وأما كافرهم؛ فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله.⁴

وفي تفسير آخر قيل إن المقصود بالعالمين: النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة، فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به. إذ هو مخلوق لأجل الإنسان، قال تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾⁵، وقال تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع

1 - سورة الأنبياء: الآية 106.

2- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، (تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط1، 1422هـ/2001م)، ص440. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2، 1384هـ/1964م)، 350/11.

3- النكت والعيون، الماوردي، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان)، 3/ 475.

4- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مرجع سابق، ص441.

5- سورة البقرة: الآية 28.

ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم¹.

وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما ينتفع به من الحيوان، ولم تأذن في غير ذلك. ولذلك كره صيد اللهو، وحرم تعذيب الحيوان لغير أكله. أما المؤذي والمضر من الحيوان، فقد أذن في قتله وطرده لترجيح رحمة الناس على رحمة البهائم².

ومما يؤكد أن الرحمة المحمدية شاملة للإنسان والحيوان أن ثمة اتحاداً وتلازماً بين شخص النبي ﷺ وبين خلق الرحمة، فلا انفكاك في كل الأحوال، وعلى أية حال كان عليها النبي ﷺ، لأن النبي ﷺ في سيرته اليومية لا يتعامل فقط مع المؤمنين، ولا مع الناس فقط³.

كما لا يتصور اكتمال منظومة الرحمة المحمدية إلا بشمولها لكل المخلوقات، إذ لا يتصور أن يتراحم الناس فيما بينهم، في حين يمارسون صور القسوة، والتعذيب على باقي المخلوقات الأخرى، من الحيوانات والطيور⁴.

- في معنى الرحمة في قوله تعالى (رحمة للعالمين):

قال الماوردي: أريد بها وجهان:

أحدهما: الهداية إلى طاعة الله واستحقاق ثوابه.

والثاني: أنه ما رفع عنهم من عذاب الاستئصال⁵.

وقال الزمخشري: هي السعادة الحاصلة من اتباعه ﷺ⁶.

وقال الرازي: كان ﷺ رحمة في الدين وفي الدنيا.

- أما في الدين: فلأنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم، وانقطاع تواترهم، ووقوع الاختلاف في كتبهم. فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته

1- سورة النحل: الآيات 5-7.

2- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (الدار التونسية، 1984م)، 179/17.

3- مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد، سارة آدم، دط ودت، ص 142.

4- نفس المرجع السابق، ص 149.

5- النكت والعيون، مرجع سابق، 476/3.

6- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ)، 139/3.

ذ. عبد الغني العموري

طلب الحق، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار، وكان التوفيق قرينا له، قال الله تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ إلى قوله: ﴿وهو عليهم غمى﴾¹.

- وأما في الدنيا: فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب، ونصروا ببركة دينه.²

وقال ابن عجيبة: يقول الحق جلّ جلاله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ أي: ما أرسلناك بما ذكر من الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما هو مناط سعادة الدارين، لئلا يرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة. أو ما أرسلناك في حال من الأحوال، إلا حال كونك رحمة لهم، فإن ما بُعثَ به سببٌ لسعادة الدارين، ومنشأٌ لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومن لم يضرب له في هذه المغامر بسهم فإنما أُوتي من قبل نفسه، حيث فرط في اتباعه.³

2- مظاهر الرحمة في الإسلام:

تتجلى هذه المظاهر في تخلق نفسه الزكية ﷺ بخلق الرحمة، وفي إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

أ- مظاهر الرحمة في شخصية الرسول ﷺ:

الرحمة من أخلاق النبي ﷺ فطرة، وتربية إلهية، وتوجيها من القرآن الكريم، قال تعالى: (واخفض جناحك للمؤمنين)⁴.

جاء في التحرير والتنوير: زين الله محمدا ﷺ بزيينة الرحمة، فكان كله رحمة، وجميع شمائله رحمة، وصفاته رحمة على الخلق.

وقد فطر ﷺ على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة، لتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يلقي إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة، حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحي به إليه ملائما رغبته وخلقه.⁵

وقد كانت صفة الرحمة حاضرة في كل ما صدر عن النبي ﷺ، من قول أو فعل، فهو الخلق الملازم له، بل هو المهيمن عليه، والموجه له. ولقد كان النبي ﷺ مستحضرا لهذا الخلق في كل

1- سورة فصلت: الآية 43.

2- تفسير الرازي، 193/22.

3- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشر: حسن عباس زكي، القاهرة، 1419هـ، 3/506.

4- سورة الحجر: الآية 88.

5- التحرير والتنوير، مرجع سابق، 167/17.

حركاته، وسكناته، يؤكد هذا قوله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»¹. ولا شك أنه كان يستحضر في كل لحظة قول الله تعالى له: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

وقد تردد وصف النبي ﷺ بالرحمة في كتاب الله في عدة مواضع، من ذلك قوله تعالى: «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك»²، وقوله تعالى: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»³. لهذا أنس المسلمون إلى رسول الله ﷺ من رجال ونساء كما يأنس الأطفال إلى الأمهات والآباء، وكان أنسهم منبعثا عن حب وإجلال واطمئنان إلى سماحة نفسه ورحمته.⁴

وقد تعددت مظاهر رحمته ﷺ وتنوعت، فوسعت المسلمين وغير المسلمين، واتسعت الأصدقاء والأعداء، وشملت الأحرار والأرقاء، وامتدت إلى الكبار وإلى الصغار، واستوعبت الأناسي والحيوان.⁵

فبالمسلمين: أنه ﷺ شكا إليه رجل أنه يتأخر عن صلاة الصبح مع الجماعة، لأن فلانا يطيل بالناس، فغضب رسول ﷺ، وقال: «إن منكم منفرين، فأياكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة».⁶

وبالأطفال: فقد أبصره الأقرع بن حابس يقبل الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم، فقال رسول الله ﷺ: إنه من لا يرحم لا يرحم.⁷

وبالمشركين: لما أسلم ثمامة بن أثال، أقسم لأهل مكة أنه لن يرسل إليهم حبة من حنطة من اليمامة حتى يأذن رسول الله.

ثم عاد إلى اليمامة، فمنع قومه أن يحملوا إلى مكة شيئا، فكتبوا إلى النبي ﷺ يقولون إنك تأمر بصلة الرحم، فكتب إلى ثمامة أن يخلو بين قومه وبين الحمل إلى أهل مكة.⁸

1- رواه الحاكم في المستدرک، کتاب الإيمان، حدیث رقم: 100، 91/1.

2- سورة آل عمران: الآية 159.

3- سورة التوبة: الآية 129.

4- من أخلاق النبي ﷺ، أحمد محمد الحوفي، (وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، 1414هـ/1994م)، ص194.

5- من أخلاق النبي ﷺ، مرجع سابق، ص195.

6- رواه البخاري، كتاب الأذان، باب تخفيف الإمام في القيام، وإتمام الركوع والسجود، حديث رقم: 702، ص175.

7- رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، وتواضعه، وفضل ذلك، حديث رقم: 2318، ص1095.

8- فتح المبيدي بشرح مختصر الزبيدي، (عبد الله الشرقاوي، دار إحياء الكتب العربية)، 151/3.

ذ. عبد الفني العموري

وبالحيوان: في مسيره ﷺ من المدينة إلى مكة عام الفتح نظر في الطريق إلى كلبة تهر على أولادها وهم حولها يرضعونها، فأمر رجلا من أصحابه أن يقوم حذاءها حتى لا يعرض أحد من الجيش لها ولا لجرائها.¹

وقد كان من المتوقع في حالة الزحف ألا يكلف أحدا بحراستها وحمايتها وإبعاد الفزع عنها، لكن رحمة الرسول ﷺ كانت فوق المتوقع، لأن أخلاقه الكريمة فوق ما يتوقع الناس.²

ب- مظاهر الرحمة في التشريع الإسلامي:

قال ابن القيم: إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل.³

وقال الطاهر بن عاشور: ومعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة، أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس، فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلا أن الرحمة فيها غير عامة. إما لأنها لا تتعلق بجميع أحوال المكلفين، فالحنيفية شريعة إبراهيم عليه السلام كانت رحمة خاصة بحالة الشخص في نفسه، وليس فيها تشريع عام، وشريعة عيسى عليه السلام قريبة منها في ذلك.

وإما لأنها قد تشتمل في غير القليل من أحكامها على شدة اقتضتها حكمة الله في سياسة الأمم المشروعة هي لها مثل شريعة التوراة، فإنها أوسع الشرائع السالفة لتعلقها بأكثر أحوال الأفراد والجماعات، وهي رحمة كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يَوْمُنُونَ﴾⁴، فإن كثيرا من عقوبات أمتها جعلت في فرض أعمال شاقة على الأمة بفروض شاقة مستمرة، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ﴾⁵ وقال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَرِّئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾⁶.

1 - المغازي، الواقدي، (تحقيق: ماردسن جونس، دار الأعلمي-بيروت، ط3، 1409هـ/1989م)، 804/2.

2- من أخلاق النبي ﷺ، مرجع سابق، ص209.

3 - إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، (دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1417هـ/1996م)، 11/3.

4- سورة الأنعام: الآية 155.

5- سورة النساء: الآية 159.

6 - سورة البقرة: الآية 53.

ولا جرم أن الله تعالى خص الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى فيما حكاه خطاباً منه لموسى عليه السلام: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾¹، ففي قوله تعالى: ﴿وسعت كل شيء﴾ إشارة إلى أن المراد رحمة هي عامة. فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس بها في سائر أحوالهم وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة.

وحكمة تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيأت بتطوراتها لأن تساس بالرحمة، وأن تدفع عنها المشقة إلا بمقادير ضرورية لا تقام المصالح بدونها. فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدة، وما في شريعة الإسلام من تمحض الرحمة، لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة، ولكن الله أسعد هذه الشريعة، والذي جاء بها، والأمة المتبعة لها، بمصادفتها للزمن والطور الذي اقتضت حكمة الله في سياسة البشر، أن يكون التشريع لهم تشريع رحمة إلى انقضاء العالم.²

ومظاهر الرحمة في التشريع الإسلامي أكثر من أن تحصى أو تعد، لكن يمكن ذكر بعضها إجمالاً كما يلي:

- إثبات اليسر ودفع العسر قال تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾³.
- إسقاط التكليف كلية عن المكلف وإعفاؤه منه، ومثال ذلك فريضة الجهاد تسقط عن أصحاب الأعذار، كالمريض والأعمى والأعرج⁴، قال تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾⁵.
- كما يسقط الحج عن الذي لا يستطيع أداءه بدنياً أو مالياً، قال تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾⁶.

- إسقاط جزء من التكليف عن المكلف، مثل قصر الصلاة للمسافر⁷، قال تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتكم الذين كفروا﴾⁸.

¹ - سورة الأعراف: الآيات 156-157.

² - التحرير والتنوير، مرجع سابق، 168/17.

³ - سورة البقرة: الآية 184.

⁴ - مظاهر الرحمة، مرجع سابق، ص 87.

⁵ - سورة الفتح: الآية 17.

⁶ - سورة آل عمران: الآية 97.

⁷ - مظاهر الرحمة، مرجع سابق، ص 87.

⁸ - سورة النساء: الآية 100.

ذ. عبد الغني العمومري

- إرجاء القيام بالتكليف إلى وقت مناسب لظروف الشخص المكلف به، مثل الصيام بالنسبة للمريض والمسافر، قال تعالى: ﴿ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾¹.

- استبدال عمل يسير بآخر عسير، فالمسافر الذي لا يجد ماء للتطهر به، والمريض الذي لا يستطيع استعمال الماء نظرا لوضعه الصحي، أجاز الشرع لهما التيمم، قال تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾².

خاتمة

لا يمكن أن تمر ذكرى المولد النبوي الشريف دون استحضار مكارم الأخلاق في شخصيته ﷺ وخصوصا ما امتاز به واختص به وحده عليه السلام وهو خلق الرحمة، فالبشرية كلها قد تأثرت بمنظومة الرحمة التي جاء بها ﷺ طائفة أو كارهة، شاعرة أو غير شاعرة. وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة، لمن يريد أن يستظل بها، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية، في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام.

وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها. وهي قلقة حائرة، شاردة في متاهات المادية، وجحيم الحروب، وجفاف الأرواح والقلوب.

¹ - سورة البقرة: الآية 184 .

² - سورة المائدة: الآية 7.

مقاصد مشيخة المغرب في الاحتفال بالمولد

ذ.عبد القادر بيطار

كلية الآداب - وجدة.

تعيش الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، أجواء الاحتفال بمولد أفضل وأشرف المخلوقات على الإطلاق، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهي مناسبة دينية عظيمة، وممتعة روحية وعقلية وتاريخية تعيد لهذه الأمة العظيمة مجدها وتاريخها الحافل، وعطاءها الحضاري المتجدد.

وللمغاربة قديما وحديثا حب شديد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعلق كبير بهذه المناسبة الدينية العظيمة، فقد أحاطها سلاطين المغرب وعلماءه وعامتهم بعناية خاصة تليق بها. لأنهم يعتقدون جازمين أن حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعرفة شمائله وخصائصه وأحواله جزء من العقائد الإيمانية التي لا يصح الإيمان إلا بها. ولهم في ذلك سند علمي متصل يتعلق برواية كتب السيرة النبوية العطرة، بما تشتمل عليه من قيم إسلامية وإنسانية كريمة. لقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾¹

وقد ألف العلامة المغربي القاضي عياض (ت544هـ) كتابا جامعاً، يعد بمثابة دستور لحقوق وواجبات المصطفى صلى الله عليه وسلم، سماه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى. ويذكر فخر الأندلس الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (ت575هـ) أسانيده في رواية كتب السيرة النبوية - وهو جانب من اهتمام مشيخة المغرب بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم - من ذلك: روايته لمغازي موسى بن عقبة بن أبي عياش (ت141هـ) وهو من صفار التابعين.² وروايته لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، المسماة: كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، للإمام محمد بن إسحاق بن يسار المطلبلي (ت151هـ) بتهذيب محمد بن هشام، (ت218هـ).³

¹ - سورة الأنبياء، الآية: 106.

² - طبع بتحقيق محمد باقشيش أبو مالك، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية /أكادير 1994م.

³ - لم يصلنا إلا قطعة يسيرة من سيرة ابن إسحاق، المسماة: كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، وهي التي حققها الدكتور محمد حميد الله، معتمدا على نسخة خزانة القرويين، وهي من رواية يونس بن بوكير. أنظر: مقدمة المحقق، لسيرة ابن إسحاق، منشورات معهد الدراسات والتعريب.

وروايته لمغازي الإمام محمد بن عمر الواقدي (ت207هـ) وكتاب الدرر في اختصار المغازي والسير للإمام الحافظ أبي عمر بن عبد البر (ت463هـ).¹

ولشهر ربيع المولد النبوي الشريف مكانة خاصة في نفوس المغاربة ووجدانهم. سندهم في ذلك أحاديث نبوية شريفة. من ذلك إشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فضيلة شهر ربيع الأول بقوله عليه الصلاة والسلام للسائل الذي سأله عن صوم يوم الاثنين: فقال عليه الصلاة والسلام: "فيه ولدت وفيه أنزل علي".²

يقول العلامة المغربي أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري المالكي الفاسي المعروف بابن الحاج (ت737هـ): "فتشريف هذا اليوم متضمن لتشريف هذا الشهر الذي ولد فيه. فينبغي أن نحترمه حق الاحترام، ونفضله بما فضل الله به الأشهر الفاضلة، وهذا منها، لقوله عليه الصلاة والسلام: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر".³ ولقوله عليه الصلاة والسلام: "آدم ومن دونه تحت لوائي".⁴ وفضيلة الأزمنة والأمكنة بما خصها الله تعالى به من العبادات التي تُفعل فيها لما قد علم أن الأزمنة والأمكنة لا تشرف لذاتها، وإنما يحصل لها التشريف بما حُصت به من المعاني، فانظر رحمنا الله وإياك إلى ما خص الله تعالى به هذا الشهر الشريف ويوم الاثنين. ألا ترى أن صوم هذا اليوم فيه فضل عظيم، لأنه صلى الله عليه وسلم ولد فيه. فعلى هذا فينبغي إذا دخل هذا الشهر الكريم أن يكرم ويعظم ويحترم الاحترام اللائق به، وذلك بالاتباع له صلى الله عليه وسلم في كونه عليه الصلاة والسلام كان يخص الأوقات الفاضلة بزيادة فعل البر فيها وكثرة الخيرات".⁵

وقد أفتى بعض العارفين بإباحة عمل المولد، فقد سئل الولي العارف بالطريقة والحقيقة أبو عبد الله بن عباد - رحمه الله ونفع به - عما يقع في مولد النبي صلى الله عليه وسلم من وقود الشمع وغير ذلك لأجل الفرح والسرور بمولده عليه السلام.

¹ - فهرسة ابن خير الإشبيلي، للإمام الحافظ أبي بكر بن خير الإشبيلي، ص: 198، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان الطبعة الأولى: 1419هـ/1998م.

² - أخرجه مسلم، كتب الصيام، حديث رقم: 197.

³ - أخرجه أبو داود في السنة، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في المسند. ولفظ مسلم: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع." صحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث رقم: 2278.

⁴ - أخرجه الترمذي، في المناقب. وأحمد في المسند.

⁵ - المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، لابن الحاج الفاسي، تحقيق توفيق حمدان، 229/2 دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى 1415هـ/1995م.

فأجاب: الذي يظهر أنه عيد من أعياد المسلمين، وموسم من مواسمهم، وكل ما يقتضيه الفرح والسرور بذلك المولد المبارك من إيقاد الشمع، وإمتاع البصر، وتنزه السمع والنظر، والتزين بما حسن من الثياب، وركوب فاره الدواب أمر مباح لا ينكر، قياساً على غيره من أوقات الفرح ... قال بعض الفضلاء: فكلام هذا الولي يدل على كمال محبته، وحسن طريقته.¹

ومن مقتضيات محبة النبي صلى الله عليه وسلم التعلق بسنته الشريفة، والدعوة إلى التمسك بها، والغيرة على صاحبها عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وتعظيمه، وتوقيره والصلاة عليه. لقد أدرك الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، هذه المعاني السامية، فكان احتفالهم برسول الله صلى الله عليه وسلم شأنًا مستمرًا، لأنهم كانوا يعيشون بين ظهرانه ويقتبسون من أنواره ومدده، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فأزال عنهم وجوده صلى الله عليه وسلم ظلم الشكوك والأوهام.

كما اعتنى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين بشمائل النبي صلى الله عليه وسلم باعتبارها جزءًا من السنة النبوية المطهرة. فهذا الصحابي الجليل هند ابن أبي هالة الأسدي التميمي ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقن في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف بالوصاف.

قال عنه الحافظ ابن عبد البر: "كان هند بن أبي هالة فصيحًا بليغًا وصافًا، وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن وأتقن."² وقد امتدت هذه الأنوار المحمدية الشريفة إلى جيل التابعين ومن جاء بعدهم إلى يوم الناس هذا.

وفي زماننا هذا، ومن باب المصلحة التي هي أصل من أصول مذهب إمامنا مالك رضي الله عنه، فينبغي أن يحتفل المسلمون بمولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، في حدود ما تسمح به الضوابط الشرعية، والأصول المرعية، احتفالاً لا يقصد منه سوى إحياء سنته، وإشعار الأمة الإسلامية بواجباتها الدينية تجاه نبيها عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، بل على المسلمين جميعهم أن يجتهدوا في إحياء هذه الذكرى العطرة، ذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

¹ - المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، ج 11 ص: 278 نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، 1401هـ/1981م.

² - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، للحافظ ابن عبد البر: 1544/4 تحقيق علي محمد البجاوي، ترجمة رقم: 2699 طبعة دار الجيل، بيروت - لبنان: 1412هـ/1992م.

وسلم، هذه الذكرى الشريفة الكريمة العظيمة التي تعيد للمسلمين شيئاً من سننه وأيامه وهديه صلى الله عليه وسلم.

أي عيب في أن يعرف المسلمون جوانب مشرقة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في سياق الاحتفال بالمولد؟

وأي عيب في أن يعرف المسلمون أطرافاً من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشمائله وخصائص نبوته وأحواله، وقصة الدعوة الإسلامية؟

وأي عيب في أن تخصص دروس ومحاضرات ولقاءات علمية مكثفة حول هذه المناسبة الدينية العظيمة؟

أي عيب في إظهار الفرح السرور في هذا اليوم العظيم الذي شرف بمولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟

لقد استحسن علماء المغرب واستصوبوا رأي القائلين بمشروعية الاحتفال بالمولد، بما يحققه من مقاصد عملية واجتماعية كثيرة.

قال العلامة ابن مرزوق في كتابه "جنا الجنتين في شرف الليلتين" ليلة القدر وليلة المولد: "سمعت شيخنا الإمام أبا موسى بن الإمام رحمة الله عليه، وغيره من مشيخة المغرب يحدثون فيما أحدث في ليالي المولد في المغرب وما وضعه العزيف في ذلك، واختاره وتبعه في ذلك ولده الفقيه أبو القاسم وهما من الأئمة فاستصوبوه واستحسنوا ما قصده فيها والقيام بها".¹

أرى والله أعلم، أن المفسدة كل المفسدة، هي محاربة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، والإنكار على من يفعل ذلك من المسلمين اليوم. علماً أن الاحتفال بالمولد يندرج ضمن قضايا العقول التي لا تتناهى الأدلة الشرعية.

ماذا جنى المنكرون من إنكارهم، سوى إبعاد المسلمين عن سيرة نبيهم صلى الله عليه وسلم. حتى إنك لتسأل اليوم كثيراً من أبناء المسلمين عن تاريخ ولادته صلى الله عليه وسلم، أو عن اسم أمه أو أبيه أو مرضعته أو أبنائه صلى الله عليه وسلم... فلا تكاد تظفر بجواب في هذا الباب.

¹ - المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن يحيى الوئشريس: 279/11 طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، خرجها جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، 1401هـ/1981م.

وكيف تظفر بجواب شاف كاف إذا لم يجتهد العلماء والمفكرون والمصلحون في تبصير الناس بسيرة نبهم عليه الصلاة والسلام، سواء تعلق الأمر بالمولد أم بغيره من المناسبات الدينية. إن أكبر بدعة تواجه المسلمين اليوم هي بدعة محاربة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من قِبَل بعض الجاحدين الجفاة، بدعى أن ذلك لم يكن موجوداً في زمان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

وهي دعوى لا تثبت أمام تفكيك مصطلح البدعة الذي توسع فيه المنكرون بما لا يستطيعون الوفاء به.

فهل كان في زمان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كل هذه المخترعات التي ينعم بها وفيها كثير من أصحاب هذه الدعاوى؟

إن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لا يدخل في الحديث النبوي الصحيح: "مَنْ أَحَدَّثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ" ¹ بل هو مجرد احتفال وإظهار الفرح والسرور، الغرض منه ربط الأمة الإسلامية بنبينا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وتذكيرها بجوانب مشرقة من سيرته العطرة صلى الله عليه وسلم.

وإذا كنا نؤكد على الدعوة إلى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، خصوصاً في هذا الظرف من تاريخ أمتنا، فينبغي أن يكون احتفالنا في مستوى صاحب الذكرى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، في تمثل الأخلاق الفاضلة، والمعاملة الحسنة، والقدوة الطيبة، والسلوك الحميد، والتدين الصحيح ونشر القيم الفاضلة بين المسلمين وغير المسلمين.

إننا حين ندعو إلى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في هذا الشهر الكريم، شهر ربيع الأول، الذي اكتسب شرفه وفضله بولادة خير الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فيه فلأننا نعلم قطعاً أن "الأمكنة والأزمنة لا تشرف لذاتها، وإنما يحصل لها الشرف بما خصت به من المعاني" كما يقول العلماء فإنما ندعو إلى إحياء سنته في سياق ما جرى به العمل عند مشيخة المغرب وغيرهم من العلماء في مشارق الأرض ومغاربها.

¹ - صحيح البخاري برقم: 2697 وصحيح مسلم برقم: 1718 .

ومن هذا المنطلق ينبغي للمسلمين أن يحترموا هذا الشهر الفضيل، الاحترام اللائق به، وأن يعظموه، بزيادة فعل البر وكثرة الخيرات. لأنه الشهر الذي ولد فيه خير خلق الله أجمعين نبينا وحبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكما يقول الإمام البصيري (ت696هـ)¹:

لَيْلَةُ الْمَوْلِدِ الَّذِي كَانَ لِلدِّيِّ نِ سُرُورٌ بِيَوْمِهِ وَازْدِهَاءُ
وَتَوَالَتْ بُشْرَى الْهَوَاتِفِ أَنْ قَدْ وُلِدَ الْمُصْطَفَى وَحَقَّ الْهَنَاءُ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان، والحمد لله رب العالمين.

¹ - قصيدة الهمزية في مدح خير البرية.

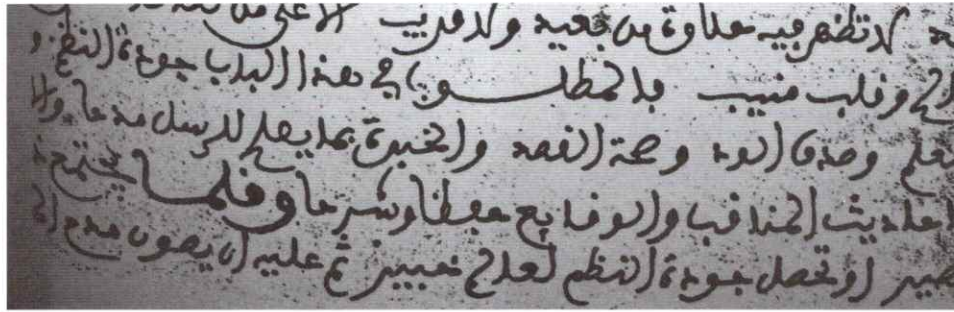
مواصفات شاعر المدحة النبوية

ذ. محمد الطبراني

جامعة القاضي عياض، مراكش.

وطاء:

لم ينل هذا الموضوع مساحةً ضافيةً في المدونات النقدية، إنْ هي إلاّ لمحات ونفثات عارضة في أضعاف كلام بعضهم، فتروم هذه الإلمامة استجماع هاته التفاريق اليسيرة لمحاذاة الموضوع، على أنْ عَظُمَ هاته الشرائط منتزَعٌ من نصّ غميسٍ لأبي شامة المقدسي.



بُداءة نصّ أبي شامة: نسخة خاصة (و2 و)

وفيما يلي تلك الشرائط على الولاء:

- جودة النظم¹:

وهذا شرط لازب فيمن أراد معاناة المدح، ودونه يقع الشاعر في السُخف، فيسيء إلى نفسه بالتعرّض لما لا قبيل له به، ويجملُ به السكوت في موطنٍ خرست فيه ألسنةُ فحول الشعراء، ومن اللَفَتَاتِ النَّقْدِيَّةِ الطَّرِيفَةِ التي أوردَها المَحَبِّيُّ في ترجمة شاعر اسمه محمد بن عبد الرحمن، قوله: "وهو مطبوع الطبع على النظم، إلاّ أنّه إذا نظم جاء بالُمُخِّ والعُظُم. وولعهُ بأوايد الكلام، كوكعهِ بشواردِ نَفَثَاتِ الأقلام. ولا بدّ مع الرُّطَب من سُلَاءِ النُّحْل، ومع العسل من إِبَرِ النُّحْل. فقد أوردتُ له ما

¹ - المقاصد السنية في شرح المدايح النبوية، لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، نسخة مخطوطة خاصة:

لوحة
² - ب.

تحمده عليه، وتترك لأجل ممدوحه تفويق سهم الانتقاد إليه¹. ومعناه أن المحبي قد ترك الإيغال في نقده، احتراماً لمقام الممدوح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أما ياقوت الحموي فقد أورد لأبي الحسن العمراني الخوارزمي الأديب (ت نحو 560هـ)، قطعة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم؛ منها:

هَدَى إِلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ أَمَّتَهُ وَكَلَّهْمُ بِعِقَالِ الشَّرْكَ مَعْقُولُ
وَكُلُّ أَصْحَابِهِ أَهْوَى وَأَمْنَحُهُمْ وَدَيَّ، وَمَبْغُضُهُمْ فِي الدِّينِ مَدْخُولُ
وَصَاحِبُ الْمُصْطَفَى فِي الْغَارِ يَتَّبِعُهُ وَهُوَ الَّذِي مَالَهُ فِي اللَّهِ مَبْذُولُ

ثم قال عقيبها: "ولهذا الإمام أشعار من هذا النمط ترك الكاغد أبيض خيراً من تسويده بها"². وهي إشارة من ياقوت إلى أن السكوت عن المدح بأشعار من هذا القبيل أجمل بالمرء وأصون لعرضه وأسلم.

ومن الملاحظ الموفية على الغرابة، أن النقد العالمين بالشعر، أخرجوا مدائح النبي عن مدارات الانتقاد، ولم يفوقوا لها سهامه مفردة، إلا في معرض الموازنة بينها عند اشتراكها في ضمائ الفضيلة، ولعلهم فعلوا ذلك بقصد ديني صرف، يرى أن القصيدة التي اتخذت لها النبي غرضاً، لا يصح أن توصف إلا بالاجادة، وأن ليس يصح أعمال مناطات البلاغة وتدرج مقاييسها ثمة؛ لأن قصد الناظم أرقى من أن تخرمه بواذر العي. ولذلك سكتوا عن إبداء ما يذيلون به المقاطيع في العادة من التثبيات، وغالبهم صرف نفسه عن إيراد ما لا يستجاد في نظره فطرحه، فراراً من أن يسوء النبي صلى الله عليه وسلم بقدر مادحه، وهذا هو الذي جعل كثيرا من المؤلفين يوردون في المدائح بعضاً من ذلك الضعيف المرذول من جهة الصنعة، اعتماداً على أن الغرض السامي يشفع لصاحبه، ويربأ به عن الانتقاص.

وقد يكون ما تعللنا به هو السبب الذي حدا بالأقدمين إلى أن يعزفوا عن اختصاص المديح النبوي بالمجاميع الشعرية أو الاختيارات على نحو ما نراه للمحدثين، فإني لم أجد في كتب الاختيارات القديمة كتاباً مخلصاً لمديح الجناح النبوي، بل إن كبار الرؤوس في عصور الشعر لم يردوا مورد المديحة النبوية إلا لماماً، لإدراكهم أن ارتياده لا يعتمد على الشاعرية فحسب، بل تلزمه أمور آخر كالصدق ومثانة الدين...

¹ - نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، لمحمد أمين بن فضل الله المحبي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط 1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1967: 628/2.

² - معجم الأدباء: 1962/5-1963.

- صحة القصد وصدق الود¹:

وهذه صفة لازمة لا تنفك عن المدحة، ولذلك نفوا صفة المدحة عن قصيدة الأعشى في الرسول صلى الله عليه وسلم، التي يقول فيها:

نبي يرى ما لا ترون وذكره
أغار لعمري في البلاد وأنجدا²

وعللوا ذلك بأنه لم يكن صادق النية في المدح، حتى إن علالات ألفها وجعلاً سيق له صرفه عن الإسلام، كما هو معلوم في كتب السير.³

وانظر إلى شرف الدين البوصيري، إن أنت أنعمت النظر إلى سائر شعره سوى قصيده في النبي صلى الله عليه وسلم، كيف انتقل من الإسفاف والتدلي إلى الشفوف والترقي، والمادة هي المادة، والشاعر هو الشاعر، وإليك قطعة من شعره لو ما عرفت صاحبها، خلتها لشويعر يقاوي ويطاول:

ويوم زارت أمهم أختها	والأخت في الغيرة كالضرة
وأقبلت تشكو لها حالها	وصبرها مني على العشرة
قالت لها كيف تكون النساء؟	كذا مع الأزواج يا عره
قومي اطلبي حقلك منه بلا	تخلف منك ولا فتره
وإن تأبى فخذي ذقنه	أو انتفيها شعرة شعره
قالت لها ما هكذا عادتني	فإن زوجي عنده ضجرة
أخاف إن كلمته كلمة	طلّقني قالت لها بعره ⁴

- الخبرة بما يصلح للرسل مدحا⁵:

بحيث يتكّب الشاعر أن يقع في مدح النبي ﷺ بما يُمدح به العامة، مما لا يماثل منصب النبوة، ولذلك عاب الجاحظ على الكُميت أن مدح النبي صلى الله عليه وسلم، بقوله:

وبورك قبر أنت فيه وبوركت
به، وله أهل بذلك يثرب

يعني قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ويثرب، يعني المدينة.

لقد غيّبوا براً وحزماً ونائلاً
عشيّة واره الصفيح المنصب

"وهذا شعر يصلح في عامة الناس"¹.

¹ - المقاصد السنية في شرح المدائح النبوية: لوحة 2-ب.

² - ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، تحقيق: د. م. محمد حسين، مكتبة الآداب بالجاميز، 1950م: 135؛ ر: 17.

³ - السيرة النبوية، لابن كثير: 79/2.

⁴ - المدائح النبوية في الأدب العربي، للدكتور زكي مبارك، ط 1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1935م: 147.

⁵ - المقاصد السنية في شرح المدائح النبوية: لوحة 2-ب.

- الإنماف بأحاديث المناقب والوقائع حفظاً وشرحاً²:

إذ الاسترسال في المديح المجرد من غير إرفاقه بما يستوجب من ذكر المناقب والشّمائل والمعجزات والخصائص يجعل المدحة مكرورة في كل أبياتها واقعة في الدور والتسلسل، ولذلك نرى أسير القصائد النبوية محتجّة لذكر غير يسير من أحاديث المعجزات، ولازم ذلك وجوب اطلاع الشاعر على أحاديث المناقب وما إليها، وتمييز غناها من سمينها، وبهرجها من ثمينها، وممن أبدع كل الإبداع في هذا الأمر، الشُّقراطيّ (ت 466هـ) حيث يقول:

وفي دعائك بالأشجار حيث أتت	تمشي بأمرك في أغصانها الدُّلّل
وقلت: عودي. فعادت في منابتها	تلك العروق بإذن الله لم تمل
والسرح بالشّام لما جثتها سجدت	شمّ الدّوائب من أفنانها الخُضُل
والجدع حنّ لأنّ فارقته أسفاً	حين تكلّى سجنها لوعة النّكل
والشاة لما مسحّت الكفّ منك على	جهد الهزال بأوصال لها قُحل
سحت بدرّة شكرى الضرع حافلة	فروّت الرّكب بعد النّهل بالعلّل
وآية الغار إذ وقيت في حُجب	عن كلّ رجس لرجس الكفر مُنتحل
وفي سُراقة آيات مبينة	إذ ساخت الحجر في وحلّ بلا وحل ³

- أبو شامة: "ثمّ عليه أن يصون مدح الممدوح عن شوبه بمدح أحد غير آله وصحبه"⁴:

لأنه إساءة إلى الرسول من حيث أراد الإحسان إليه، وتشريك في التّبة، بإرادة وجه الله مع التزلف الناشئ عن الطمع، وهما أمران لا يجتمعان بحال، ولا يستقيم لشاعر أن يأخذ بناصيتهما مأخذ صدق، ولعلّ هذا ما درأ شاعراً كأبي الوليد ابن الأحمر (ت 807هـ) في شرحه للبردة، إلى أن يسم مدح غير رسول الله والمنسبين إليه وإن على جهة الأفراد بالدون والضعة، إذا ما قيس بمدحه صلى الله عليه وسلم:

مدائح المصطفى آمن وإيمان	ومدح غير رسول الله خُسران
ومن أتى بمديح في سواه فقد	أتى بوزر به زور وبهتان
وأنك مديح سواه إنّه كذب	وإنما هي أشعار وألحان ¹

¹ - البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط 7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998م: 240/2.

² - المقاصد السنية في شرح المدائح النبوية: لوحة 2-ب.

³ - أنجم السياسة وقصائد أخرى، تحقيق عبد الله كنون، ط 1، دار الثقافة، البيضاء، 1989م.

⁴ - المقاصد السنية في شرح المدائح النبوية: لوحة 3-أ.

وبعض الشعراء استغرقوا شعرهم في مدح النبي ومخاطبته:

إن نددت مجاميع المديح عن جمع التكثر، فإن من الظواهر الملفتة في تاريخ أدب المديح النبوي، اختصاص بعض الشعراء بالتبريز في فن الحجازيات ورسائل المدحة إلى الوجهة النبوية الوجهية، وقصر دواوينهم عليها؛ ومن هؤلاء الشاعر الموحد ابن الصباغ الجذامي الموحد، فقد أكثر في ديوانه من رسائل الشوق، وعكف على مدح النبي على جهة الاختصاص؛ وهو القائل:

تركت امتداح العالمين ولذت من مدائح خير الخلق بالغروة الوثقى
سأجعلها كهفي وحصني وملجئي لعل بالأمداح أستوجب العتقا
وأشدو بها في كل نادٍ مردداً أطارح في شجوي وأشجاني الورقا²

وقد انتشرت الحجازيات والمدائح النبوية في تضاعيف ديوانه حتى شكلت عظم مادته، ونذر أن تخلو قصيدة من شجى التذكار وتحميل الركب أو الحداة أو الرياح سلاماً للنبي صلى الله عليه وسلم، ولن يكون من شأن هاته العجالة أن تضم أشتات المقاطيع التي ضمت أضرباً من ذلك، لأنها تكاد تستغرق الديوان برمته، فلنكتف بنموذج دال، وليقسن على ما لم يقسن³. فمنه في "تلبية الحادي لأشرف نادي، وشرح حال الصادي وشوقه الممادي، وهو مما يحرك القلب المشوق، ويحدو لتلك المعالم ويسوق":

لله حادي الظعن ما أشجاه
لبى وللفرقات بين ضلوعه
ذكر العقيق وساكنيه فضرمت
شام البروق ولم يسقى نهلة
يا حسرتا نالوا المنى وبنت به
يا أهل كاظمة نداء متيم
رقوا لفرط سقام صب مكمدر
في لثم ثرب معاهد المختار لو
يا أرض طيبة والديار قصية
نمر الوصال بدوح روضك يانع
لما دعا مضنى النوى لباه
لهب تضرم وقده أمواه
بلهيب أشواق العقيق حشاه
ما كل شائم بارق يسقاه
عما نواه من الوصول نواه
بعد الديار وشخطها أضناه
في أرض طيبة برؤه وشفاه
يعطى المنى مما اشتهاه مناه
إن المعنى طال فيك عناه
فمتى يتاح على البعاد جناه

¹ - اختصار الجاديري لشرح البردة لابن الأحمر: 157.

² - ديوان ابن الصباغ الجذامي، تحقيق: د. محمد زكريا عناني، ود. أنور السنوسي، ط 1، دار الأمين، القاهرة، 1999م: 9.

³ - ن الديوان: 9، ر: 4؛ 13، ر: 8؛ 14، ر: 9؛ 14، ر: 10؛ 20، ر: 18؛ 27، ر: 25؛ 30-31، ر: 29؛ 55، ر: 53.

طالت لأرض الهاشمي خطاهُ	حاز السَّعُودَ وفاز بالعليا فتى
ندُّ ولا لخاله أشباهُ	تالله ما لجلالِ أحمدَ في الوري
وأحلَّ في أسْمَى على مرقاهُ	الله شرفَ قدرَ أحمدَ في الوري
شرفُ علاء المَعْلُواتِ بَنَاهُ	أتى يضاهي أو يُداني في العلي
كشَفَ المهمَّ مِنَ الذي أَحْشَاهُ	فحبَّه أرجو غداً من مالكي
من ذي شُجُونٍ بَعْدَهُ أشْجَاهُ ¹	فعليه ما سَحَّ العَمَامُ تحيةً

- "أَلَا يَعْرِضَ فِيهِ بِطَلَبِ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا"²:

وتعلَّ ذلك أَنَّ مدحَ الرسول وآله قربةً مذخورٌ أجرُها، ووسيلةٌ يُرتجى ثوابها يومَ العَرْضِ على الله، فشَوَّبُها بشيءٍ من الأعراض والأغراض، ونشَبُها أنشوطَةً لاستخلاصِ قِسْمٍ دنيوية، حائلٌ بها عن غرضها، مُفَضِّ إلى مَحَقِّ ثوابها وأجرها، وهذا الملمَحُ هو الذي جعل من شعرِ الكُمَيْتِ بَن زَيْدٍ، شعراً لا تُنالُ به الدنيا، وإنما تُسْتَجَلَبُ به الآخرة، وهو ما أدركه بحسَّ نقديٍّ باذخٍ بديعُ الزمان الهمداني (ت 395هـ)، إذ عَرَضَ لصاحبِ الهاشمياتِ بالذِّكْرِ في رسالةِ الذهب والأدب فقال: "واحتيج في البيت، إلى شيء من الزيت، فأنشدت ألفاً ومائتي بيت، من شعر الكميت، فلم يغن...!"³.

- "أَنْ يَسْلُكَ مِنْهُجَ الْجَدِّ فَهُوَ الدَّرَجَةُ الْعُلْيَا"⁴، وَأَنْ يَجْتَنِبَ مِنْ عَادَةِ الشُّعْرَاءِ مَا هُوَ مُسْتَحْسَنٌ فِي مَدْحِ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ؛ مِنْ نَحْوِ الْمِبَالَغَاتِ الْفَاحِشَةِ وَالْعَزَلِ وَتَضْيِيعِ الزَّمَانِ فِي وَصْفِ نَاقَةٍ أَوْ جَمَلٍ، بَلْ يَجَرِّدُ عَزْمَهُ وَيَصْرِفُ هَمَّهُ إِلَى مَجَرَّدِ الْمَدْحِ وَالنَّاءِ"، كما عبَّر أبو شامة:

إلا أن هذا الشرط من الشروط التي عَزَّ على شعراء المديح التقيُّدُ بها، لأنَّهم يَجْرُونَ وراءَهم تقاليدَ شعرية تجري مجرى العادة المحكَّمة، والقلةُ القليلةُ منهم ممَّنْ حادَ عن ذِكْرِ الوقوف على الأطلال، ووصفِ مغاني الحبيب والتلهُّف على زمان الوصل، لم يهْجُمْ كفاحاً على الغرض، ولكِنَّه ربط هذه المقدمات بالغرض، فاستتمَّتْ له الوحدة الموضوعية من مطلع القصيدة، ألا ترى إلى دُعْبِلَ الخَزاعي يمدحُ آلَ بيت النبي كيف استغلَّ المقدمة الطللية ووظفها أبدعَ توظيف حين قال -مع أن هاته الأبيات عدَّة ثلاثين من المطلع- :

¹ - ديوان ابن الصباغ الجذامي: 94.

² - المقاصد السنية في شرح المدائح النبوية: لوحة 3-أ.

³ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م: 300/4.

⁴ - المقاصد السنية في شرح المدائح النبوية: لوحة 3-أ.

مدارس آيات خلت من تلاوة
لآل رسول الله بالخيف من منى
ديار علي والحسين وجعفر
ديار عفاها جور كل منابذ
قفا نسأل الدار التي خف أهلها
ولا ينفي ما قلناه أن بعض الشعراء جردوا المديح من كل شائبة غير المدح، فيفصحون في
المطلع عن القصد، ومن متقدميهم حسان رضي الله عنه حيث يقول:
أغر عليه للنبوة خاتم
ومنهم أبو زيد عبد الرحمن يخلفتن الفازازي الأندلسي (ت 627هـ)، حيث يقول في الوسائل المتقبلة:
أحق عباد الله بالمجد والعلا
نبي له أعلى الجنان مَبِوًا³
وبعضهم يتفصّل بذكاء لَمَاح عن غزل العتبات الشعرية إلى الانصراف اللبّق عنه، كقول
ابن لبّال الشريشي (ت 583هـ):
سلام ولا أقرأ سلاماً على هند
على قمر لو أطلعته يد النرى
وأربى على نور الغزالة نوره
فطاب به ثرب الضريح بطيبه
ويضحك عن روض ثداني يد الصبا
فطوبى لمن أضحى يمرغ لوعة
نبي عليه من تلالؤ نوره
نما من قریش في دُؤابة هاشم
سلام عليه ما تغت حمامة
وما أنشد المشتاق إن هبت الصبا
صرفت إذا مسرّاي عن مسلك الرشد
لقصر عن لأثيه قمر السعد
كتما يفضل الحرّ الكريم على العبد
فيعبق عن مسك ندي وعن ند
به صفحة السوسان من صفحة الورد
بثربه ذاك القبر خدًا إلى خد
تلالؤ برق أسرجته يد الرعد
فما شئت من فضل عميم ومن مجد
وفاح ذكي المسك من جنة الخلد
”ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد“⁴،¹

¹ - ديوان دعبل الخزاعي، شرح حسن حمد، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م: 40-41.

² - ديوانه: 54.

³ - الوسائل المتقبلة بتخميس ابن وهيب، لأبي زيد عبد الرحمن يخلفتن الفازازي الأندلسي، مع تخميسها لأبي بكر محمد بن وهيب، المطبعة الميمنية، مصر، 1322هـ: 4.

⁴ - صدر بيت للمجنون؛ عجزه: «لقد زادني مسراك وجدا على وجد».

- "أَنْ يَجْعَلَ مِنْ وَكْدِهِ مَا يَلَأْتُمْ غَرَضَ الْمَدِيحِ مِنَ التَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ وَشَكْوَى الذَّنُوبِ وَطَلِبِ الْخِلَاصِ مِنْ وَثَاقِ الْغَيِّ الْمُخْلِدِ إِلَى الْأَرْضِ"²؛

وشعراء المديح في هذا آخذون بإخذ واحد، فما من مدحة إلا وصاحبها مؤمل أن يناله رفق في أخراؤه لشفوف إحسانه، وغلبة إثقانه، مُستشرفاً أن يرفع الله عنه دَسَسَ المعصية وأن ينتشله من وهدة الخطيئة، يقول البوصيري:

آه مما جُنِيتَ إِنْ كَانَ يُغْنِي	أَلِفٌ مِنْ عَظِيمِ ذَنْبٍ وَهَاءُ
أَرْتَجِي التَّوْبَةَ النَّصُوحَ وَفِيهِ	قَلْبٌ نَفَاقٌ وَفِي اللِّسَانِ رِيَاءُ
كَنتَ فِي نَوْمَةِ الشَّبَابِ فَمَا اسْتَيْدَ	قَطَطْتُ إِلَّا وَلَمَّتِي شَمْطَاءُ
وَتَمَادَيْتُ أَقْتَضِي أَثَرَ الْقَوُ	مَ وَقَدْ طَالَتْ مَسَافَةٌ وَاقْتَفَاءُ
فَوَرَا السَّائِرِينَ وَهُوَ أَمَامِي	سُبُلٌ وَعَرَةٌ وَأَرْضٌ عَرَاءُ
حَمِدَ الْمُدْلِجُونَ غَيْبَ سُرَاهُمْ	وَكَفَى مَنْ تَخَلَّفَ الْبُطَاءُ
رَحْلَةً لَمْ يَزَلْ يَفْنِدُنِي الصَّيِّ	فُ إِذَا مَا نَوَيْتُهَا وَالشِّتَاءُ ³

ومن هذا النمط قول المقرئ النحوي أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن الصائغ:

بُعْدُ الْمَرْارِ وَلَوْعَةُ الْأَشْوَاقِ	حَكَمًا بَفِيضِ مَدَامِعِ الْأَمَاقِ
وَخَفُوقُ نَجْدِي التَّسِيمِ إِذَا سَرَى	أَذْكَى لَهَيْبِ فَوَادِي الْخَفَاقِ
أُمُغْلَلِي أَنْ التَّوَاصَلَ فِي غَدَرٍ	مَنْ ذَا الَّذِي بَغَدٍ فَدَيْتُكَ بِبَاقِ
إِنَّ اللَّيَالِيَ سُبُّقٌ إِنْ أَقْبَلَتْ	وَإِذَا تَوَلَّتْ لَمْ تُثَلِّ بِلِحَاقِ
عُجْ بِالْمَطِيِّ عَلَى الْحِمَى سَقِي الْحَمَى	صَوَّبَ الْغَمَامِ الْوَكَفِ الرَّقَاقِ
فِيهِ لَذِي الْقَلْبِ السَّلِيمِ وَدَادُهُ	لَا كَانَ فِي الْأَيَّامِ يَوْمُ فِرَاقِ
يَا سَارِيًّا وَاللَّيْلُ سَاجٍ عَاكِفٌ	يَفْرِي الْفَلَاحَ بِنَجَائِبِ نِيَّاقِ
عَرَجَ عَلَى مَثْوَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	خَيْرَ الْبَرِيَّةِ ذِي الْمَحَلِّ الرَّاقِ
وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَنْ لَهُ	حِفْظُ الْعُهُودِ وَصَحَّةُ الْمِيثَاقِ
الظَّاهِرُ الْآيَاتِ قَامَ دَلِيلُهَا	وَالظَّاهِرُ الْأَخْلَاقِ وَالنَّاعِرُاقِ

¹ - المطرب من أشعار أهل المغرب، لأبي الخطاب ابن دحية السبتي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ود. حاد عبد المجيد، ود. أحمد أحمد بدوي، ط 1، المطبعة الأميرية، مصر، 1955م: 97؛ ابن لبال الشريشي، لابن شريفة: 81.

² - المقاصد السنية في شرح المدائح النبوية: لوحة 3-أ.

³ - الإرشادات الربانية بالفتوحات الإلهية، على متن الهمزية، لعلي حرازم برادة الفاسي، طبع بمصر: 141 وما بعدها.

ومنها بعد كثير، مضمون الرسالة:

يا ذا الذي اتَّصلَ الرَّجاءُ بحبلِهِ
حُبِّي إِلَيْكَ وَسِيلَتِي وَذَخِيرَتِي
وإِلَيْكَ أَعْمَلْتُ الرِّواحِلَ ضُمَّراً
نُجْباً إِذَا تُشِرَّتْ حُلَى تِلْكَ الْعُلا
تَحْدُو لَهْنَ مِنَ التَّحِيْبِ تَرْدُودُ
غَرَضٌ إِلَيْهِ فَوْقَ قَتْلِهَا أَسْهُماً
فَأَنْخَرْتُهَا بِفَنَائِكَ الرَّحْبِ الَّذِي
وَقَرَى مُؤَمِّلِكَ الشَّفَاعَةَ فِي غَدِ
وَعَلَيْكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ تَحِيَّةً
تَتَارَجُ الْأَرْجاءُ مِنْ نَفَحَاتِهَا

وَأُنَبِّتُ مِنْ هَذَا الْوَرَى بِطَّلَاقِ
إِنِّي مِنَ الْأَعْمَالِ ذُو إِمْلَاقِ
تَخْتَالُ بَيْنَ الْوُخْدِ¹ وَالْإِعْنَاقِ²
تَطْوِي الْفَلا مَمْتَدَّةً الْأَعْنَاقِ
وَتَقْوِ دُهْنَ أَرْزَمَةِ الْأَشْوَاقِ
وَهِيَ الْقَسِيُّ بُرِينَ كَالْأَفْوَاقِ³
وَسَعِ الْوَرَى بِالنَّائِلِ الدَّفْأِاقِ
وَكَفَى بِهَا هَبَّةً مِنَ الْوَرَزَّاقِ
تُحْيِي النُّفُوسَ بِنَشْرِهَا الْفُتَّاقِ
أَرْجَ النَّدِيِّ بِمَدْحِكَ الْمَصْدَاقِ⁴

- أن مادح النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يكون ماضي المهمة في تجديد التوبة والتوبة، متحققاً بنصاب من حسن التأسّي يشفع له في الاستشراف لمقام الزلفى بالمديح، إذ لا أسمع من شاعر بغيض الخلق لاصق بحضيض الدنيا النفسية، واغل في مباءة العصيان، يصعد نظراً أعشى إلى مشكاة لا يقبس منها إلا ليرتد إليه الطرف حسيراً، يزري شعره بالنبي ولا يفري، ومن ثم اشترط في المادح أن يكون "... قاصداً سبيل الحق والصدق فيما قال وفعل، مجتهداً في تصحيح نيته وحسن طريقته وسلامته سيرته وتجديد توبته... وقد كان السلف الصالح يكرهون سماع الخير إلا من أهل الخير، كما حكى عن إبراهيم بن أبي عبلة؛ قال: كنا نجلس إلى عطاء الخراساني فكان يدعو بعد الصبح بدعوات، فغاب، فتكلم رجل من المؤذنين، فأكرر رجاء بن حيوة صوته. فقال له رجاء: من هذا؟ قال: أنا يا أبا المقدام. فقال: اسكت؛ فإننا نكره أن نسمع الخير إلا من أهله"⁵. وبيان ذلك؛ أن اشتراع القول في النبي صلى الله عليه وسلم هو عروج إلى سدره المنتهى، وروء على حضرة القدس، ومن شأن المعارج أن يتقدمها شق القلب بمبضع التطهير، لإزالة حظ الشيطان

¹ - سعة الخطو وسرعة في المشي.

² - ضرب من السير فسيح سريع، للإبل والخيول.

³ - وفي السهم فوقه: وهو موضع الوتر منه والجميع أفواق.

⁴ - الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالاندلس من شعراء المئة الثامنة، للسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، ط 1، دار الثقافة، بيروت، 1963م: 88-90.

⁵ - المقاصد السنية في شرح المدائح النبوية: لوحة 3-أ.

من قلب الساري أو التخفيف من غلوائه، ليتأتى له اختراق السبع الطباق، أما من أتى الرآن على قلبه بما اجتراح، فقد أبلس عن حياض النبي ﷺ أن ينال منه غرقة، أو تناله منه نفحة.

- نسبة الشاعر نفسه إلى العجز والتقصير عن مدحه صلى الله عليه وسلم، وتقال الجهد في ذلك، وإن كان محسناً:

ولعل هذه هي علة كُوص "فحول الشعراء المتقدمين كأبي تمام والبحري وابن الرومي عن مدحه صلى الله عليه وسلم- والكلام للبدر الزركشي- وكان مدحه عندهم من أصعب ما يحاولونه، فإن المعاني وإن جلت، دون مرتبته، والأوصاف وإن كملت دون وصفه، وكل غلو في حقه تقصير، فيضيق على البليغ النطاق، فلا يبلغ إلا قلاً من كثير"¹.

ولما عشر الكُميتُ عثرة لا يقال لها لعا، فقال من قصيدة:

فاغتنب الشوق من فوادي والشغف	رُ إلى من إليه مُعَتَّبُ
إلى السراج المنير أحمد لا	تعدلني رغبة ولا رهَبُ
عنه إلى غيره، ولورفع النأ	سُ إليَّ العيون وارتقبوا
وقيل أفرطت، بل قصدت ولو	عنفني القائلون أو ثَلَبوا
إليك يا خير من تضمّنت الأُر	ضُ ولو عاب قولِي العُيبُ
لج بتفضيلك اللسان ولو	أكثر فيك اللجاج واللُجُبُ

تورّك عليه الجاحظ فقال: "ومن غرائب الحمق: المذهب الذي ذهب إليه الكُميتُ بن زيد، في مدح النبي صلى الله عليه وسلم- يعني في هذه القصيدة-: فمن رأى شاعراً مدح النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس، حتى يزعم هو أن ناساً يعيبونه ويثلبونه ويعنفونه؟"². زاد الخالديان: "وما نعرف شيئاً من الشعر القديم ولا المحدث يلحّقه من العيب على تقدّم صاحبه وإجماع العلماء على تفضيله في الشعر وحذّقه به، مثل هذه الأبيات؛ وهي للكُميت ابن زيد يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم"³.

¹ - المنح المكية في شرح الهمزية، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيتمي (ت 974 هـ)، تحقيق: أحمد جاسم المحمد، وبوجعة مكري، ط 2، دار المنهاج، بيروت، 2005م: 69.

² - البيان والتبيين: 239/2-240.

³ - الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، لأبي بكر محمد بن هاشم الخالدي وأبي عثمان سعيد بن هاشم الخالدي، تحقيق: د. محمد علي دقة، ط 1، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، 1995م: 94-95.

ويأتي ابن رَشِيق القيرواني (ت 463هـ) لِيُوقِّعَ بِأَخْرَةٍ فيقول: "وهذا كله خطأ منه، وجهل بمواقع المدح"¹.

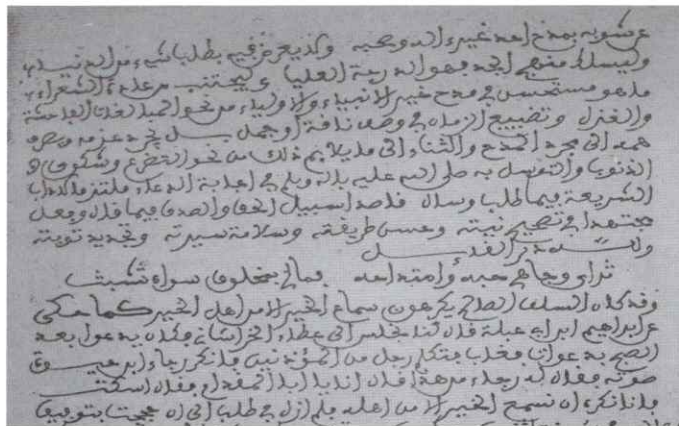
هلاً قال مثل حسان:

ما إن مدحتُ محمداً بمقالتِي لكن مدحتُ مقالتِي بمحمدٍ

أو مثل البوصيري:

إنَّ منْ معْجَزاَتِكَ العَجْزُ عَنْ وَصْفِكَ إِذْ لَا يَحْدُهُ الْإِحْصَاءُ كَيْفَ يَسْتَوْعِبُ الْكَلَامُ سَجَايَاكَ وَهَلْ تَنْزُحُ الْبَحَارُ الرَّكَاءُ
لَيْسَ مِنْ غَايَةٍ لَوْصَفُكَ أَبْغِيهَا وَلِلْقَوْلِ غَايَةٌ وَانْتِهَاءُ إِنَّمَا فَضْلُكَ الزَّمَانُ وَأَيَاتُكَ فِيمَا نَعُدُّهُ الْآتَاءُ
لَمْ أَطُلْ فِي تَعْدَادِ مَدْحِكَ نَطْقِي وَمُرَادِي بِذَلِكَ اسْتَقْصَاءُ²
والحقُّ أنَّ الاحْتِرَازَ بَعْدَ سَوْقِ هَاتِهِ الْمَوَاصِفَاتِ لَازِمٌ؛ وَذَلِكَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ أَبُو شَامَةَ بِالْقَوْلِ: "وَقَلَّمَا
يَجْتَمِعُ ذَلِكَ لِشَاعِرٍ بَصِيرٍ، أَوْ تَحْصُلُ جُودَةُ النَّظْمِ لِعَالَمٍ خَبِيرٍ"³.

وما أحسن ما قال ابن الإمام داود الظاهري في الزهرة⁴: "وكلُّ ما مدح به ﷺ، فإنَّما يجري إلى مُنْتَهَى عَمَلِهِ وَفَضْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، يَجُلُّ عَنْ أَنْ تَدْرِكَهُ الْخَوَاطِرُ وَالْأَفْكَارُ، وَيَكْبُرُ عَنْ أَنْ تَحِيطَ بِجَمْعِهِ الرِّوَايَاتُ وَالْأَخْبَارُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ وَآلِهِ الْمُنْتَجَبِينَ، صَلَاةً تُبْلِغُهُ رِضَاهُ، وَتَتَجَاوَزُ بِهِ إِلَى أَنْ يَقْصُرَ عَنْهُ مَنَاهُ. وَعَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ".



تمام نصّ أبي شامة: نسخة خاصّة (و 2 ظ)

¹ - العمدة في محاسن الشّعْر وآدابه، لأبي عليّ الحسن بن رَشِيق القُيُرواني الأَزْدِيّ (ت 463 هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 5، دار الجيل، بيروت، 1401هـ/1981م: 123/2.

² - الإرشادات الربانية: 151 وما بعدها.

³ - المقاصد السنية في شرح المدايح النبوية: لوحة 3-أ.

⁴ - 512/2.

الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف في الرحلة الحجازية المغربية

د. محمد الأندلسي

باحث في التاريخ، تطوان

تقديم:

يُعدُّ الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف، وإحيائها بالذكر والمديح، واستحضار شمائل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وسيرته النبوية العطرة، من العوائد الراسخة، والمواسم الدينية الثابتة، التي تحرص الأمة الإسلامية قاطبة على إحيائها، تعظيماً لهذا النبي المصطفى وتوقيراً له، باعتبارها من شعائر الدين وتمايم الإيمان. ويختلف شكل هذا الاحتفال وطوقسه من مجتمع إسلامي لآخر؛ فإذا كان المغاربة يخصصون تلك الليلة بإقامة الحضرة في المساجد والزوايا، التي تتلى فيها الأذكار الصوفية، وتُشدُّ فيها القصائد والأمجاد النبوية كالبردة والهمزية، بشكل جماعي، في أجواء روحانية تفيض بالرحمات والنفحات الربانية. فإن للمشاركة في المدينة المنورة ومصر وحتى للأتراك العثمانيين في إستانبول، طريقتهم المثلى وأسلوبهم الخاص في إحياء تلك الليلة المباركة والاعتناء بها، من خلال إبراز المظاهر الاحتفالية بإيقاد المصاييح والمشاعل، وتزيين المساجد والشوارع والأحياء، وإنشاد القصائد والأمجاد.

وقد اهتمت كتب الرحلات الحجازية المغربية بوصف تلك العادات الاحتفالية وتسجيلها، فجادت علينا بتفاصيل دقيقة عن الاستعدادات والإمكانات المادية والمعنوية التي ترصدها السلطات الحاكمة لإحياء تلك المواسم الدينية والثقافية، وكشفت لنا عن حجم المشاركة الشعبية الكبيرة التي تعكس مستوى التدين لدى المجتمعات الإسلامية.

ولقد تفاعل علماء المغرب الرحّالين - بحكم تكوينهم الفقهي وتجربتهم الصوفية - مع تلك المظاهر الاحتفالية، وعبروا عن استحسانهم لتلك المواسم الدينية المقامة بالمدينة المنورة بالحرم النبوي الشريف، ومصر بالمشهد الحسيني، وإستانبول بمسجد السلطان أحمد، بل شاركوا في إحياء تلك الليلة المباركة، بالذكر وقراءة الأمجاد النبوية وإنشاد غُرر القصائد في الشمائل المحمدية.

نروم من خلال هذه الورقة البحثية المتواضعة، رصد بعض أشكال احتفال المجتمعات الإسلامية في المشرق بليلة المولد النبوي الشريف، وما ميزها من طقوس مختلفة تعكس الهوية

الدينية والخصوصية الثقافية لديها، وذلك من خلال الاعتماد على نصوص الرحلات الحجازية التي دونها علماء المغرب خلال الحقبة الحديثة (ق 10 - 12 هـ / 16 - 18 م).

1. إحياء ليلة المولد النبوي الشريف بالمدينة المنورة:

قدم لنا العياشي وصفا بديعا ومفصلا لمظاهر احتفال أهل المدينة المنورة بليلة المولد النبوي الشريف لعام 1072 هـ، استهله برصد الاستعدادات المادية المتخذة لاستقبال هذه الليلة المباركة، والتي تنطلق في مُهلّ ربيع الأول، بتنظيف الحرم الشريف وفرشه وتزيينه؛ يقول بهذا الصدد: "ولما استهل ربيع النبوي، نُظِّفَ الحرم الشريف، وفُرشَ بفرشه المعهودة من الزرابي المبتوثة الحسان التي لا يوجد لها نظير إلا في بيوت الملوك، وغالبها يأتي من أرض الهند من عند ملوكها، وقد رأيت سداء بعضها حريرا خالصا، وكنت أتوقى الصلاة فيها، وطعمها من جيد الصوف الملون الذي لا يكاد يفرق بينه وبين الحرير إلا ذو بصيرة، يفرش بها المسجد النبوي، أعني القديم السقف كله. وأخرجت الربائع التي فيها المصاحف العتيقة والأجزاء الحسان من وقف الملوك والكبراء، وصُفِّت في قبلة المسجد، وفُتحت خزائن الكتب العلمية الموقوفة بالحرم الشريف يستعير منها الناس للقراءة، وشرع الأئمة في القراءة والتدريس"¹.

ومما استحسنه العياشي -الذي تطوَّع للمشاركة في هذه العملية رغم مرضه- تسابق الناس وتنافسهم في خدمة المسجد النبوي على اختلاف مقاماتهم ومكانتهم الاجتماعية؛ "وتنافس الناس في الخدمة في ذلك اليوم بنقل البُسط وغيرها، وعمل في ذلك الأمراء العظام فمن دونهم، وناهيك بشرف مقام يتشرف أعظم الملوك بتولي خدمته، ويجعل بُسطه التي تُداس بالأرجل على رقبته، ويعفر مصون شبيه في قتيّر حُصره، ويكحل بتراب أرضه إنسان عين بصره، ولقد رأيت الأمير إبراهيم الذي كان أمير الحاج المصري، وهو من الأمراء الكبار مُشمرا عن ساقه قد جمع عليه ثيابه وقد كاد الغبار أن يوارى بشرة وجهه وهم يخرجون صناديق الكتب من الحجرة الشريفة. وما كان يتولى الخدمة هنالك إلا مَنْ وَمَنْ. ولقد جهدت أن أتشرف بشيء من تلك الخدمة، فلم أقدر إلا على بسط الفرش في محالها بعد وصولها إليها، وفي ذلك، والحمد لله، كفاية ينال بها محصلها أكبر عناية."²

¹ - أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية (1661- 1663م)، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى 2006م، ج1، ص 436.

² - الرحلة العياشية، ج1، ص 437.

وبدئوا ليلة المولد النبوي الشريف، يبدأ العد العكسي، وتدخل الاستعدادات آخر مراحلها بوضع اللمسات الأخيرة من العناية بالمصابيح والمشاعل وتنظيفها، وإخراج القناديل الكبار والحسك العظام من الحجرة الشريفة؛ "وإذا قربت ليلة المولد الشريف بولغ في تنظيف الحرم وتزيينه وغسل مصابيحها وجددت أفوايحها، وجعل فيها مائع شديد الحمرة لا أدري ما هو، وألقي فوقه قليل زيت طيب أخضر، فإذا توقد المصباح ظهر إشراق الصباح لشدة صفائه وملاقاته لضوء النار، وأشرقت حمرة ذلك المائع لكونها ملاقية لصفاء الزجاج فتصير حمرة كحمرة الياقوت، وذلك الحط من الزيت فوقه أخضر كالزمرد وفوقه صفاء الزجاج يتموج فيه ضوء النار، وينعكس فيمازج إشراقه صفاء الزيت وخضرته، وصفاء المائع الحمر وحمرة، فلا تسأل عن حسن ذلك المنظر وبهائه، وقد رتبت المصابيح في تعليقها ترتيبا لائقا، وشكلت تشكيلا بديعا بين ترييع وتدوير، فيا له من منظر ما أبهجه! ومن ليل ما أسرجه! ونور النبوة مشرق على كل ذلك، وبرز على جميع ما هنالك"¹. ويضيف قائلا: "فإذا كان بعد صلاة العصر من اليوم الحادي عشر، أخرجت القناديل الكبار والحسك العظام من الحجرة الشريفة، الرائقة المنيفة، غالبها من النحاس المطلي بالذهب، فمن لم يعرف أصلها لا يظنها إلا ذهبيا خالصا. وكل واحدة أعظم من قعدة الرجل العظيم، وصفت في صحن المسجد، ووضعت فيه الشمع الغليظة الصافية اللون، منها ما يزن نصف القنطار ومنها دون ذلك. وفي وسط القناديل قنديل كبير من فضة خالصة زيتة أكثر من قنطار، فيه خمس حسك كبار، من فضة مدور الشكل. فيوضع في كل حسكة منها شمعة، وتبسط البسط الرفيعة من جوانب القناديل من كل جهة لجلوس الأمراء وأرباب المراتب وجلوس المنشدين"². وبعد صلاة المغرب توقد المصابيح والشموع في صحن المسجد النبوي الشريف، ويبدأ الناس في الاجتماع، استعدادا لإحياء الليلة المباركة، فإذا صليت العشاء، يقول العياشي: "جلس الأمراء في الفرش المعدة لهم كل على مرتبته، وجلس الشعراء أمامهم والمنشدون، وضربت خيمة قريبة من باب النساء وضعت فيها أنواع الأشربة الحلوة، فإذا امتلأ المسجد وغص بأهله، وجلس كل واحد في موضعه، قام المنشدون فينشدون من غرر القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ما انتخبوه وأعدوه لذلك الموضع بالحن عجيبة وتراجيع منسقة، وبإزائهم جماعة يردون عليهم بأصوات حسنة، فيجيء السقاؤون بأنواع الأشربة الحلوة فيسقون الأمراء والمنشدين ومن معهم من أتباعهم، ثم سائر الناس، ثم يؤتى

¹ - الرحلة العياشية، ج1، ص 437 - 438.

² - الرحلة العياشية، ج1، ص 438.

بأنواع الرياحين والأزهار فتوضع بين أيديهم أضغاثاً، ثم تفرق على الحاضرين، ثم يؤتى بأطباق من اللوز والسكر وأنواع الحلوى فتفرق أيضاً، وينثر ما بقي على عامة الناس، ولا يزالون كذلك حتى يمضي من الليل ما شاء الله النصف أو قريباً منه فينصرفون¹.

لقد أعجب العياشي باحتفال أهل المدينة المنورة بليلة المولد النبوي الشريف، رغم اختلاف طريقة احتفالهم عن طريقة احتفال أهل المغرب، إلا أنه لم يخف انزعاجه من كثرة النساء في المسجد وإكثارهن من الولول، "وهذه الليلة من الليالي الغر المسترخص شراؤها بباقي العمر لولا ما شائها من كثرة النساء في المسجد وإكثارهن من الولول، إلا أن أكثرهن في مؤخر المسجد من قبة الشمع وما حولها إلى آخر المسجد"².

اكتفى أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته الحجازية لعام 1121هـ - جريا على عادة القدامى - بنقل ما أورده شيخه العياشي في رحلته من وصف لمظاهر احتفال أهل المدينة بليلة المولد النبوي الشريف³، وذلك في معرض حديثه عن عادة يوم الكنييس التي توافق السابع عشر من ذي الحجة من كل عام، حيث تعود أركاب الحجاج والزوار قافلة كل إلى بلده، فلا يبقى بالمدينة سوى أهلها أو المجاورون بها. فيشرع في تنظيف المسجد النبوي: "وكانت عادتهم إذا كان اليوم السابع عشر من ذي القعدة يسمونه الكنييس، جمعت بوسط الحرم الشريف كلها وأدخلت في المخازن فلا يبقى في المسجد إلا الحُصر، وأدخلت المصاحف التي في المسجد، والسبجات إلى الروضة"⁴. وعند اقتراب ليلة المولد النبوي تتكثف الاستعدادات وتصير على قدم وساق.

رغم أن محمد بن الطيب الشرقي الفاسي لم يصادف ذكرى الاحتفال بمولد خير البرية بالمدينة المنورة، إلا أنه نقل لنا أجواء الليالي التعبدية التي كان الحجاج المغاربة يحرصون على إحياؤها بالمسجد النبوي الشريف خلال مدة مقامهم بطيبة، فيقول في هذا السياق: "وبتنا هذه الليلة في المسجد النبوي متصلين بالشبَّاك الأنور، فيما بين الروضة والمنبر، وامتلأ المسجد الشريف بالوفود، واجتمعت فيه جماعات لا يمكن وصفها، إذ الوصف يقصر عن إدراك ذلك المنظر الباهر،

¹ - الرحلة العياشية، ج1، ص 438 - 439.

² - الرحلة العياشية، ج1، ص 439.

³ - الرحلة الناصرية، ص 534 - 536.

⁴ - الرحلة الناصرية، ص 533.

وَيَكُلُّ دُونَ جَمَالِهِ الزَّاهِرِ، وَبَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ أَخَذْنَا فِي إِشَادِ الْقَصَائِدِ الْمَدِيحِيَّةِ؛ مِنَ الْبُرْدَةِ وَالْهَمْزِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَنْشَدْتُ عِنْدَ رَأْسِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَصِيدَتِي الْمَتَقَدِّمَةِ الذِّكْرَ¹:

[الكامل]

يَا مُقَلَّتِي، هَذَا الْمَقَامُ الْأَكْبَرُ	وَالرَّوْضَةُ الْغَنَاءُ فِيهَا وَالْمُنْبَرُ
وَالْمَسْجِدُ الْأَسْمَى الَّذِي مِحْرَابُهُ	أَبْدًا عَلَى الْأَكْوَانِ طَرًّا يَفْخَرُ
هَذِي مَرَابِعُ طَيَّةِ الْغَرَا الَّتِي	مِنْ طَيِّبِهَا طَابَ الشَّدَا وَالْعَبْرُ
هَذَا الْبَقِيعُ، وَذَلِكَ أَشْرَفُ بُقْعَةٍ	الْأَلِّ وَالْأَصْحَابُ فِيهَا قُبُرُ

[...] وطاب بشراب معانيها الشرب والسكر، وظهرت لي آثار قبولها، واستنشقت أرواح شمالها وقبولها....] وذكرت هناك أيضا قصيدة أخرى، كنت اتخذتها عند الرسول غنيمة وذخرا، كنت أشتاق في أولها لتلك المساكن، وأشتهي أن ألقى من بها ساكن، أولها:

[المنسرح]

يَا بَارِقًا لَاحَ مِنْ قُبَا سَحَرًا	بَحِيثُ حَلٍّ مِنَ النَّهْيِ سَحَرًا
أَعَارَ قَلْبِي خَفَقًا وَأَخْلَفَ فَاسًا	تَعَارَ مِنْ سُحْبٍ مُقَلَّتِي مَطَرًا
وَأَذْكُرُ الْعَهْدَ مِنْ سَعَادَ وَلَمْ	أُنْسَ وَهَاجَ الْأَحْزَانُ وَالْفِكْرَ ²

وبعد إنشاد القصائد الغراء، يقول محمد بن الطيب الشرقي: "وختمنا ذلك المجلس بتلاوة الذكر، وتوجهنا إلى الله تعالى في تلك الأوقات والأمكنة المعروفة بإجابة الدعاء فلا جزاء عليها إلا الشكر، وتضرعنا إلى الله نتوسل برسوله إليه، نلم بحوائجنا عليه، ونسأل خيرات الدنيا والآخرة، ونطلب بجاهه الدرجات الفاخرة، فيأما أسعد ليلة، وطاب للمشوق فيه أن يصل بالسهر نهاره وليله"³.

2. إحياء ليلة المولد النبوي الشريف بمصر القاهرة:

أهل شهر ربيع النبوي الأنور على الركب المغربي لعام 1143هـ بالديار المصرية، فرصد لنا الإسحاقي في رحلته عادة احتفال المصريين بليلة المولد النبوي بالمشهد الحسيني بالقاهرة المحروسة،

¹ - تتيف هذه القصيدة - كما ذكر ابن الطيب في رحلته - عن مائة وعشرين بيتا، وقد ضاعت منه ضمن ما ضاع من مرحوله. أنظر: أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي: الرحلة الحجازية، تقديم وتحقيق الأستاذان نور الدين شوبد وحسناء بوتواوي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2018م، ج2، ص 420 - 423.

² - الرحلة الحجازية، ج2، ص 447.

³ - الرحلة الحجازية، ج2، ص 450 - 451.

والتي تختلف عن عادة احتفال المغاربة، حيث قال: "فإنه يقع في هذا المشهد المبارك من إيقاد المصابيح والشموع والثريات والمشاعل المختلفة الأشكال والهيئات شيء لا يحده الوصف ويحار فيه الطرف، وتقرأ في تلك الليلة أحزاب وأذكار ودعوات بأصوات شجية، ونغمات ظاهرة وخفية، تخشع لها القلوب القاسية، ولا ينام أحد تلك الليلة، ولا يغلق بها باب درب ولا غيره، ولا يتحرك فيها عسس ولا أصحاب شرطة ولا دور، غير أنهم لا يقرؤون هذه الأمداح التي تقرأ عندنا بالمغرب ليلة الميلاد المبارك مثل الهمزية والبردة وغيرهما من القصائد المتضمنة مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، وإنما تعظيمهم لهذه الليلة بإيقاد المصابيح في كل شارع وفي كل سوق، يستعدون لذلك قبل ليلة الميلاد بيومين وثلاثة، مع إظهار الفرح والسرور واللعب والطرب، ويقع من هذا التزيين في الأزبكية أضعاف ما يقع في المدينة كلها، ولقد حضرنا هذا الموسم المبارك والنيل في فيضه ما انتهت جريته بعد، وكانت هذه الأزبكية أخذت قدرها من الماء، فنصبت بها الفلائك المصنعات و(الجواري المنشئات)¹، والناس في تلك الليلة المباركة بل وفي تلك الليالي قبلها يلعبون ويفرحون، (وَكُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)²3. وأبَتُ الأميرة خناثة بنت الشيخ بكار المغافري زوج السلطان مولاي إسماعيل، التي حَجَّتْ في هذا الركب رفقة حفيدها الأمير سيدي محمد بن عبد الله، إلا أن تُحْيِي هذه الليلة المباركة على العادة المغربية الأصيلة، وبهذا الصدد يقول الإسحاقى: "وأقمنا نحن المغاربة ليلة الميلاد المبارك بحذاء منزل السيدة المباركة من طرف الحلي، على عادتنا في إحياء الليلة المباركة بقراءة الأمداح وحضرة الذكارين، وكانت ليلة مباركة مشهودة، قامت السيدة المباركة في تعظيمها وقعدت وأنجزت فيها من الفواضل ما وعدت، فأولت الناس برّاً وإكراماً ورياً وإطعاماً، وما تركت من العادة الماثورة بدار الخلافة بالغرب عمرها الله بوجود سيدنا نصره الله، شيئاً إلا عملته وزادت عليه، أجمل الله سعيها وأصلح رأيها آمين".⁴

وبالمشهد الحسيني دائماً، جرى الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف عام 1196هـ، إلا أن رحالتنا محمد بن عبد السلام الناصري تحفّظاً عن الحضور والمشاركة في ذلك الاحتفال لأسباب دينية وأخلاقية، حيث جاء في جوابه على الفقيه أبي داود سليمان الجمل الذي سأله: "وقال لي ذات

¹ - تضمين للآية 22 من سورة الرحمن .

² - سورة الروم: الآية 31.

³ - أبو محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقى: رحلة الوزير الإسحاقى الحجازية، دراسة وتحقيق محمد الأندلسي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2017، ج1، ص 407 - 408.

⁴ - رحلة الوزير الإسحاقى الحجازية، ج1، ص 409 - 410.

يوم صاحب الترجمة ببيته بالوكالة مداعبا: لم نرك في الحسنين في الموسم النبوي، وقد قامت قيامة أهل مصر لهذا الموسم فاختلف الرجال بالنساء، وصارت مصر كلها بجميع أسواقها وصوامعها ومساجدها وديارها في تلك الليلة مصاييح كأنها شمس نهار. فقلت: منعني الزحمة واختلاط الرجال بالنساء، والوقت وقت نوم واستراحة أو عبادة، فقال مداعبا: يا أخي نحن فقراء شحاذون، يعني جامعون للعالم بالحيل¹. نتبين من موقف محمد بن عبد السلام الناصري، حرص علماء المغرب وفقهائه على تحصين العادات الاحتفالية بضوابط الشريعة، درءا للهوى واتقاء للشبهات.

3. إحياء ليلة المولد النبوي الشريف بإستانبول (العاصمة العثمانية):

تجمع رحلة محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي بين السفارة والحج، فإذا كانت السفارة إلى الدولة العثمانية (العاصمة إستانبول) هي المهمة الرسمية الأولى التي كلف بها ابن عثمان، فإن الحج أيضا كان بتكليف من السلطان سيدي محمد بن عبد الله، يقول ابن عثمان بهذا الصدد: "وأمرني أدام الله اعتناؤه، وخلّد في الدهر بالجميل ثناءه، أننا إذا تقضينا من القسطنطينية غرض الرسالة، مع تحصيل رؤية بدر تلك الهالة، نستعد للسرى إلى أم القرى، لنتقضى مناسك الحج ووظائف العجّ والتّجّ، ونُفرق هديته على أهل الحرمين الشريفين التي أصحبنا وبثوابها أتحنّفا"².

اغتم ابن عثمان المكناسي مُدّة مقامه بالعاصمة العثمانية إستانبول، لرصد أوضاع الدولة العثمانية في جوانبها المختلفة³. وما يعنينا في هذا المقام هو الوصف البديع الذي قدمه لنا عن عادة احتفال الأتراك بليلة المولد النبوي الشريف. حيث يُقام حفل ديني رسمي بهيج - يُستدعى إليه عليه القوم من كبار رجال الدولة والمسؤولين والعلماء والقضاة يتقدمهم السلطان العثماني، كما يحضره عامة الناس - بمسجد السلطان أحمد الذي يرتدي حلّة جديدة، وتُقاد فيه الشموع والثريات. ويبدأ هذا الحفل بقراءة الأمداح فرّادى باللغة التركية "ثم صعد رجل على كرسي وأخذ في مدح

¹ - أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري: الرحلة الناصرية الكبرى، دراسة وتحقيق المهدي الغالي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2013م، ج2، ص 714 - 715.

² - محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي: إحرار المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بغير الحبيب، 1785، تحقيق وتقديم محمد بوكبوط، دار السويدي للطباعة والنشر، أبو ظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2003م، ص. 49.

³ - يرجع بهذا الصدد إلى دراستنا الموسومة بـ "صورة المجتمع التركي العثماني في الرحلة المغربية خلال الحقبة الحديثة (القرنان 16 - 18م)"، المنشورة ضمن الكتاب الجماعي: "الذاكرة المشتركة المغربية- التركية، تنسيق عبد الرحمن المودن، عبد الحفيظ الطبايلي، نور الدين لهريم، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، الطبعة الأولى، 2018م، ص. 211 - 230.

المصطفى صلى الله عليه وسلم بلغة الترك، ثم نزل فخلع عليه خلعة ودفع بيده كيس، ثم صعد ذلك الكرسي رجل آخر فقراً مثل الأول ثم نزل، فخلعت عليه خلعة ودفع له كيس، ثم صعد آخر ففعل وفعل معه ما تقدم، ثم تناوب ثلاثة رجال آخرون كرسيا آخر لعلهم أصغر مرتبة ممن تقدم، ففعلوا مثل الأولين وأعطوا من الخلع والأكياس مثل ذلك"¹، ومن عاداتهم أثناء قراءة الأمداح يقول ابن عثمان: "حين يَصِلُونَ في المديح إلى ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم، كمثّل قول البوصيري رضي الله عنه "ليلة المولد الذي كان للدين سرور بيومه وازدهاء"، يقوم السلطان والناس جميعاً إجلالاً له صلى الله عليه وسلم"². ويطاف بالبخور والطيب داخل المسجد، ويؤتى بموائد الطعام والحلويات والأشربة على اختلاف أنواعها، "وفي حُلّ هذا المديح، طيف بالطيب والبخور في المسجد بعد أن وضعوا ذلك أمام الوزير وشيخ الإسلام، ثم أوتي بموائد كثيرة فيها أنواع الحلوات والأشربة على ألوان مختلفات، ووضعت أمام الوزير والفقهاء وأكابر الدولة وأعيانها، ثم فرق على القوم تمر ورَدَ من المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام بقصد التبرك"³.

ويستقبل السلطان- خلال هذا الحفل الديني- سفير الركب الحجازي التركي، الذي يقدم له تقريراً مفصلاً عن أحوال الركب وأحوال موسم الحج وما وقع فيه "ثم إن العادة عندهم أن الحجاج حين يقفلون من الحج ويصلون إلى الشام، يقدمون بين أيديهم سفيراً بالإعلام للسلطان بأحوال الموسم وأحوال الركب وما وقع فيه، وحيث يرد السفير فالغالب عليه أنه يرد على القسطنطينية قبل العيد بأيام، فيقيم بداره إلى أن يكون يوم الموسم المذكور، فيلبس ثياب السفر ويتوجه إلى المسجد الذي يقع فيه الموسم كأنه قدم حينئذ"⁴، وينتظرون لحظة قيام السلطان لإدخال سفير الركب "وفي ذلك القيام يدخلون عليه سفير الركب النبوي بالمكاتب، فيؤديها ويخلع عليه خلعة ويجزل أعطيته وينصرف"⁵. إنها صورة واقعية تكشف لنا طريقة الاحتفاء الرسمي للأتراك بذكرى ليلة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يميزها من طقوس روحية ومظاهر احتفالية تجسد الهوية الثقافية العثمانية خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

¹ - المكناسي: الإحراز، ص. 102.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - المكناسي: الإحراز، ص. 103.

⁵ - المكناسي: الإحراز، ص. 103.

خلاصة:

يعكس احتفاء علماء المغرب الرحّالين بذكرى المولد النبوي الشريف، وترصيع كتب رحلاتهم الحجازية بأوصاف الاحتفالات البهيجة، والطقوس الروحانية العجيبة، المقامة في مشارق الأرض ومغاربها، حجم التعظيم والتوقير لخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ولعل أهم ما يمكن استخلاصه من تأريخ مؤلفي الرحلات الحجازية المغربية لذكرى الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف، هو استحسانهم لتلك المواسم الدينية والطقوس الروحية التي ميزتها، في ضوء استحضر الهوية الدينية المغربية كمرجع وميزان شرعي للحكم على بعض العادات التي ينفرد بها المشاركة من الاعتناء المبالغ فيه بإيقاد المصابيح والمشاعل والشموع، وكثرة النساء في المساجد، وأجواء الطرب واللعب، التي من شأنها أن تزيج بهذه المناسبة الدينية عن المقصد الشرعي المتمثل في استحضر الشمائل المحمدية والتأسي بها، وقراءة السيرة النبوية والاقتداء بهدي صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام.

المولد النبوي فرصة لتجديد التعلق بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم

ذ.عبد الله الشريف الوزاني

رئيس مؤسسة مولاي إدريس للدراسات الشرعية والتاريخية.

إن من نعم الله علينا أن هدانا للإسلام، ومن كمال فضله سبحانه أن جعلنا من أتباع وأحباب نبي السلام سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقد بُني الإسلام على أركان عظيمة ومبادئ منيفة، ومنها المحبة في الله، ألا وإن من أسمى مظاهر الحب بل من أشده وجوبا حب الله وحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أما حب الله تعالى فلما يغدو به الخلق من النعم، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وأما حب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلحب الله له، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم مشروطا حبه لكمال الإيمان: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده ووالده والناس أجمعين".

وقد تعددت مظاهر حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتكاثرت أشكالها وأهمها تعظيمه عليه الصلاة والسلام وتوقيره، ثم اتباع طريقته وانتهاج نهجه؛ ومن المظاهر التي ورثها خلف الأمة وسلفها لبيان تعلق قلوبهم بنبيهم الكريم الاحتفال، والاستبشار بيوم مولده الشريف خاصة في زمان تكالب أعداء الإسلام على نبي الإسلام، وتفاقت خطورة إهمال أجيال الإسلام لمقام نبي الإسلام، فكان الحكم قديما يتردد بين الجواز والاستحباب، فصار اليوم يتردد بين الاستحباب والوجوب لما أن الأمور في الشريعة بمقاصدها.

فرضية التعلق بالجناب الأحمدي

إن التعلق بالجناب المحمدي وإيثار حبه صلى الله عليه وآله وسلم على حب النفس والأهل والمال من دلائل الإيمان وبراهين صدق الإذعان، بل إن محبة كافة الأنبياء فرض، ومحبة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فريضة، أكد من الله تعالى علينا كباقي الفرائض لا فرق بينها وبين الفرائض الأخرى، ودليلنا على أن محبة النبي فريضة قول الله عز وجل ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة فخشون كما أساءتم ومساكن ترصونها

أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهنم في سبيله فتربصوا حتَّى يأتي الله بأمره¹ وأما حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يرويه البخاري ومسلم وسواهما فهو دليل أيضاً على أن محبة النبي فريضة يجب أن نتذكرها وأن نعيّ فيما إذا كنا نقوم بها، هذا الحديث يقول فيه صلى الله عليه وآله وسلم: " لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحب إليه من والده وولده ومن الناس أجمعين" هذا مستند الفريضة. ويروى أن ثوبان رضي الله عنه وأرضاه، جاء مرة إلى النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام فقال: " يا رسول الله! والله إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإنني لأذكرك في بيتي فما أصبر حتَّى آتيك فأنظر إليك، وإنني لأتذكر موتي وموتك فأقول: إنك في الجنة مع النبيين، وإنني في مكان آخر، فأبكي خشية أن لا أراك بعد الممات، فلم يرد عليه النبي عليه وآله الصلاة والسلام بل نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى على قلب النبي محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام ﴿ومن يصبغ الله والرسول فلولاً مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾² فتبسم ثوبان واطمأن إلى أنه سيلقى النبي حتَّى بعد الممات لأن المرء مع من أحب. إن محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكافأة يمنحها الله عز وجل كل من آثر الله ورسوله على هواه، فيحس أن للإيمان حلاوة تتضاءل معه كل اللذات الأرضية، ولأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، فكلما ازداد العبد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حباً كلما ازداد له ذكراً ولأحاديثه ترديداً ولسنته اتباعاً ومع كل هذا يذوق حلاوة الإيمان.

وفي هذا يقول شهيد العشق، الإمام الحلاج:

والله ما طلعت شمس ولا غربت	إلا وأنت مني قلبي ووسواسي
ولا جلست إلى قوم أحدثهم إلا	وأنت حديثي بين جلاسي
ولا هممت بشرب الماء من عطش	إلا رأيت خيلاً منك في الكاس

يقول نافع: نظرت إلى ابن عمر إذا اتبع سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل مكان صلى فيه، حتَّى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نزل تحت شجرة، فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة فيصب في أصلها الماء كي لا تيبس.

¹ سورة التوبة، الآية 24.

² سورة النساء، الآية: 68.

أما عمرو بن العاص فيقول: ما كان أحد أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، حتى لو قيل لي: صفه ما استطعت أن أصفه!!

أما الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين سئل: كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا وأحب إلينا من الماء البارد على الظم.

وهذا زيد بن الدثنة رضي الله عنه وقد كان أهل مكة قد أخرجوه من الحرم ليقتلوه، فقال له أبو سفيان (وهو يومئذ مشرك): أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقك وأنت في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً في مكانه الذي هو فيه مقيم تصيبه الشوكة وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً.

وكذا ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه الذي اشتاق إلى رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وسلم وعدم إطاقة فراقه، ففي الوقت الذي كان الناس يسألون النبي صلى الله عليه وآله وسلم الشاء والبعير، قال ربيعة: أسألك مرافقتك في الجنة فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "فأعني على نفسك بكثرة السجود" صحيح.

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا حبه وحب رسوله وحب ما يقربنا إلى حبهما.

فهذه نماذج من تعلق الأصحاب بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبذلك نالوا الدرجات العلى وقويت دولتهم وكانوا أسيادا إذ عظموا في أنفسهم ما عظمه الله ووقروا في قلوبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكلما ضعف تعلق المسلمين بنبيهم ضعفت همهممهم وكلت عزائمهم وقصرت حاجاتهم وذلت لأهل الكفر رقابهم.

فكان من أوجب الواجبات وأكد المؤكدات أن يستعيد المسلمون شبابا وشيوخا رجالا ونساء حبهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيمهم لمقامه، وذلك بالتعرف عليه وعلى سيرته ثم اتباع سنته عليه السلام.

المولد النبوي فرصة لتجديد التعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

في ظل تكالب الأمم على أمة الإسلام، وتحت ظلال الواقع المرير الذي تعيشه الأمة خاصة في زمن عولمة الثقافة، وسيطرة الأفكار الأجنبية، وتدويل اللغة الواحدة وغير ذلك مما يصيب الأمة

بذوبان ملحوظ في ثقافتها وهوية أبنائها، ولغتها، وفي زمن تفاقم خطورة العداء المقنن الماكر للإسلام ومبادئه وأعلامه، بات من اللازم مضاعفة الجهود والعمل الجاد لإحياء تعظيم شعائر الله في قلوب المسلمين، وأول ذلك تعظيمهم لمن بعث رحمة للعالمين، والتعرف عليه. فلزم استغلال كل وسيلة ومناسبة وفرصة لتوجيه الناس وتعليق قلوبهم بهذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فمن أهم تلك المناسبات يوم مولده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يوم خير على الخلائق أجمعين، كيف لا وهو يوم الرحمة الكبرى ويوم الهدية العظمى.

قد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثمرة زواج موفق ميمون، اتحد فيه عنصر طيب بعنصر طيب، وانضم به أصل كريم إلى أصل كريم، وأصهر بيت عريق في شرف الآباء وطهر الأمهات، إلى بيت يكافئه في الشرف والطهارة، فكان بذلك نسلا طاهرا كريما. أشرقت الدنيا بمولده، وخرج معه نور أضاء ما بين المشرق والمغرب، وكان من المبشرات بمولده صلى الله عليه وآله وسلم حادثة أصحاب الفيل، وهي إيذان بإهلاك الظلم والطغيان وميلاد عهد جديد للحق والعدل والأمان. وازدادت الحياة برسالته ضياء وابتهاجا، ودخل الناس في دين الله أفواجا من مشارق الأرض إلى مغاربها، فكانت سيرته صلى الله عليه وآله وسلم عظيمة مبدلة، نظرا لجهوده صلى الله عليه وآله وسلم في نشر هذا الدين، وما تبعه من صبر على أذى المشركين وأذى المفتريين، فتعجبت الدنيا لقيادته للجيش العظيمة عجبها من عبادته وخشوعه، فكان بذلك صلى الله عليه وآله وسلم الرجل الأول في تاريخ الإنسانية.

فما أحوجنا في هذه الذكرى المجيدة، أن نستحضر الرسول القدوة، لتتحرك العزائم، وتوقظ الهمم للعمل والجد والاجتهاد، ولا يتسنى ذلك إلا بمراجعة واعية للذات، والوقوف على مكان القوة والضعف بهدف بناء جيل واع يعرف ما له وما عليه، جيل يتابع المسير على الطريق الذي سلكه صلى الله عليه وآله وسلم، ويلتزم بنهجه القويم، ويهتدي بهديه السليم. فالوفاء لهذه الذكرى، يعني أن نتحسس في أنفسنا حقيقة الحب الذي نكنه لهذا الرسول العظيم، ذلك أن محبته صلى الله عليه وآله وسلم ليست مجرد ادعاء، وإنما طاعة واتباع، لأن الله عز وجل يعلم أن النفس البشرية مطبوعة على ما تحب، ومن يحب يعشق كل ما يتعلق بالمحبوب، إذ لا يكمل إيمان المرء حتى يكون صلى الله عليه وآله وسلم أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين، وأنه لا يذوق المؤمن حلاوة الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فتتحقق بذلك بشرى: المرء يحشر مع من أحب، والله عز وجل يقول: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ

وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، وقبائل نخشون كسلها ومسكن نرضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهلائه في سبيله، فتركوا حتى بلغ الله بأمركم، والله لا يهدي القوم الفاسقين¹.

فكيف لا يحب هذا الرجل الكريم، وهو الذي قال عنه الله عز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾²، وكيف لا يقدر هذا النبي العظيم وهو الذي امتدحه به عز وجل قائلا: ﴿لقد من الله على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لأغريق ضلال مبین﴾³، فبعثته صلى الله عليه وآله وسلم أعظم منة، لأنها غيرت حالة أقوام وأجيال تغيرا كاملا نحو الأفضل. فالاحتفال بالمولد النبوي الشريف، يجدد الإيمان، ويملا قلوب الناس حبا بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، ويزيد من معرفته ومدحه والذي يعتبر من أعظم العبادات: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا﴾⁴، والتوقير يكون بحفظ الهيبة، ذلك أن الأوائل إذا ذكروه صلى الله عليه وآله وسلم تغيرت ألوانهم وارتعشت جوارحهم، فهذا الإمام مالك رحمه الله، يدرس الفقه، وكان عندما يدخل درس الحديث يغتسل ويتطيب، ويروي الحديث بكل أدب وخشوع، وما ذلك إلا إجلالا وتعظيما له صلى الله عليه وآله وسلم. ومن عظيم الاهتمام به صلى الله عليه وآله وسلم أن العلماء وصفوه بأدق الأوصاف: ذكروا عدد الشعرات السوداء في لحيته، ووصفوا مشيته ووقفته وسواكه، وتحدثوا عن مرضعاته وإخوانه، وكل شيء يتعلق به صلى الله عليه وآله وسلم.

وإحياء ذكرى مولد الشاهد والمبشر والنذير والشفيع صلى الله عليه وآله وسلم، يحيلنا إلى فهم فحوى هذا الدين الحنيف، والذي يدعو إلى المحبة والإخاء والعدل والمساواة بين كل المسلمين. والاحتفال أيضا يجب أن يكون رائده وموجهه هو الدعوة إلى السلم والسلام، لأن الإسلام جاء رحمة للناس كافة، وما سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلا تجسيда ظاهرا لخير البشرية، وتكميلا لدعوة الأنبياء، وما تقدم الحضارة الإسلامية إلا لأنها اعتمدت مبادئ سامية وأخلاق عالية تجعل الإنسان يسعد في الدارين.

فلله ما أعظم هذا القائد وما أصدق، فتح القلوب قبل أن يفتح البلدان، وسيرته صلى الله عليه وآله وسلم يستقي منها الدعاة أساليب الدعوة، والمربون طرق التربية ووسائلها، والقادة نظم

¹ - سورة التوبة، الآية: 24.

² - سورة الأنبياء، الآية: 106.

³ - سورة آل عمران، الآية: 164.

⁴ - سورة الفتح، الآية: 9.

القيادة ومنهاجها، والزهاد معنى الزهد ومقاصده، والتجار مقاصد التجارة وأنظمتها وطرقها، والعلماء ما يعينهم وينير بصيرتهم على فهم كتاب الله عز وجل. وخلصا، تستقي منه الأمة الآداب الحميدة والأخلاق الرفيعة، والشمائل العالية، ما يعينها في دينها ودنياها.

والسيرة النبوية العطرة، حافلة بالأحداث والمعاني التي تعتبر المفتاح للتغيير والإصلاح، ذلك أن حياته صلى الله عليه وآله وسلم مليئة بالمعاني الجميلة، سواء في حياته باعتباره نبيا، أو قاضيا وحاكما أو باعتباره إنسانا عاديا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. ولله در أحمد شوقي حيث أنشد في هذا المعنى:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وسناء
الروح والملا الملائك حوله للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهي والمنتهى والسدره العصماء

فسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أفضل الخلق على الإطلاق، وقد أثنى عليه رب العالمين وزكاه في آيات تتلى إلى يوم الدين:

1. فقد زكى عقله فقال: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾¹.
2. وزكى قوله فقال: ﴿وما ينصق عن الهوى﴾².
3. وزكى شرعه فقال: ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾³.
4. وزكى فؤاده فقال: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾⁴.
5. وزكى بصره فقال: ﴿ما زاغ البصر وما هوى﴾⁵.
6. وشرح له صدره فقال: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾⁶.
7. ورفع ذكره فقال: ﴿ورفعنا لك عنك﴾⁷.
8. ووضع عنه وزره فقال: ﴿ووضعنا عنه وزرك﴾⁸.

1 - سورة النجم، الآية: 2.
2 - سورة النجم، الآية: 3.
3 - سورة النجم، الآية: 4.
4 - سورة النجم، الآية: 11.
5 - سورة النجم، الآية: 17.
6 - سورة الشرح، الآية: 1.
7 - سورة الشرح، الآية: 4.
8 - سورة الشرح، الآية: 2.

وزكاه كله فقال: ﴿وإننا لخلق عظيم﴾¹.

فالنبوي صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل الذي يتحلى بالخلق العظيم وقد عرف عنه قبل البعثة أنه "الصادق الأمين"، وها هو صلى الله عليه وسلم يضرب لنا مثالا عظيما في العفو والتسامح عندما دخل مكة فاتحا وإذا به يعفو ويصفح عمن آذوه أشد الأذى، ويقول لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء "

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، عدد أنفاس أمته، اللهم ببركة الصلاة عليه، اجعلنا بالصلاة عليه من الفائزين وعلى حوضه من الواردين الشاربين وبسننته وطاعته من العاملين، ولا تحل بيننا وبينه يوم القيامة يا رب العالمين، واغفر لنا ولوالدينا ولأشياخنا ولمن له الحق علينا ولجميع المسلمين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

¹ - سورة القلم، الآية: 4.

جوانب من البيداغوجية الروحية وراء الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

د. محمد غاني

باحث، فاس.

ليس هناك شرع حنيف إلا ووراءه حكمة ومغزى سواء وصل إليها عقل الفقيه أم لم يصل، هكذا علمنا علم المقاصد الشرعية¹ الذي نتج عن اجتهادات عظيمة لفقهاء أفذاذ أمثال الإمام الشاطبي² علّم هذا العلم بامتياز، وقبله الجويني³ والباقلاني⁴ والغزالي⁵ وبعده الطاهر بن عاشور⁶ وغيرهم كثير. وقد علمتنا بيداغوجيا القرآن الكريم أن نعظم عظماء التاريخ في رمزية لطيفة قد لا ينتبه لها إلا ذو لب، كقوله تعالى: ﴿مقام إبراهيم ومن لم يخله كان آمناً﴾⁷، وتسمية "المقام" لتعظيم مكان من الأرض لا لشيء إلا لأنه لامس نبي عظيم حين إشرافه على بناء بيت عظيم

¹- لا يخفى على مهتم بالعلوم الشرعية أن علم المقاصد الشرعية هو العلم الذي يبحث في الحكم والعلل والمقاصد التي قصدها الشارع الحكيم وراء تشريع كل حكم شرعي، كما أنه يبحث بالعلاقة بين مقاصد الشارع الحكيم ومقاصد العبد المكلف.

²- يترجم له صاحب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي ص: 46، بهامش الديباج لابن فرحون، ط1، مكتبة السعادة، مصر، 1329هـ، بأنه هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، المعروف بالشاطبي، من علماء المالكية في الأندلس وقد اختلف في مولده وفي وفاته، والمعتمد في وفاته حسب نفس المؤلف أنه توفي يوم الثلاثاء من شعبان سنة تسعين وسبعمئة، ولم يقف التمبكتي على مولده رحمه الله، أما الأستاذ أبو الأجنان صاحب كتاب تحقيق وتعليق على كتاب الإفادات والإنشادات للشاطبي ببيروت فرجح أن تكون ولادته قبيل سنة 720، للشاطبي مؤلفات جليلة أهمها اثنان: الموافقات والاعتصام، وله أيضا شرح الخلاصة عبارة عن كتاب في النحو يشرح فيه ألفية بن مالك، وعنوان الاتفاق في علم الاشتقاق، أصول النحو، والإفادات والإنشادات.

³- هو أبو المعالي الجويني توفي سنة 478 هـ من أبرز علماء أصول الفقه في التراث الإسلامي له عدة مؤلفات في مختلف حقول الشريعة الإسلامية أما في أصول الفقه الذي يبرز فيه تضلعه في فقه المقاصد فله كتاب البرهان والورقات والغنية والتحفة والتلخيص.

⁴- توفي سنة 402 هـ لبيان أهميته في علم أصول الفقه الذي من ضمن مباحثه علم مقاصد الشريعة قول الزركشي في مقدمة البحر المحيط في أصول الفقه، أثناء بيانه للمراحل التي مر منها علم أصول الفقه: "وجاء من بعده (يقصد الامام الشافعي صاحب المذهب الفقهي المعروف) فبينوا وأوضحوا وبسطوا وشرحوا، حتى جاء القاضي: قاضي السنة أبو بكر بن الطيب وقاضي المعتزلة عبد الجبار، فوسعا العبارات، وفكا الإشارات، وبينا الإجمال، ورفعوا الإشكال، واقتفى الناس بآثارهم، وساروا على لآحبار نارهم، فحرروا وقرروا، وصوروا"

⁵- توفي سنة 505 هـ لا يخفى على أحد ضلوعه في علم أصول الفقه ومن ثم مقاصد الشريعة الإسلامية من مؤلفاته المستصفي في علم أصول الفقه، وشفاء الغليل في القياس والتعليل والمنحول في علم الأصول وأساس القياس وغيرهم كثير سواء في علم الأصول أو غيره من مباحث العلوم الشرعية.

⁶- توفي سنة 1393 هـ وهو فقيه تونسي يرجع نسبه إلى عائلة الأشراف الأدارسة بالمغرب له تفسير شهير يدل على تضلعه في مختلف العلوم الشرعية عنوانه ب"التحرير والتنوير" وله كتاب خصصه بالكامل لعلم المقاصد وسمه ب"مقاصد الشريعة الإسلامية".

⁷- سورة آل عمران، الآية 97.

هو الكعبة الشريفة، ومنه قوله «عسى أن يبعث الله رباً مقاملاً لعموماً»¹، لتعظيم مكانته بين الخلق وتبيان مكانته العظمى عند الخالق جل وعلا حيث ذهب أغلب المفسرين إلى أن المقصود بالمقام المحمود هو الشفاعة الكبرى التي لم يحظ بها كل الأنبياء.

رمزية إشارية من القرآن الكريم إلى تعظيم أمر ما نجدها أيضاً في آيات تبين قدر شهر رمضان بين بقية الشهور في قوله تعالى «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان»²، وغيرها من الآيات الكريمة التي تلفت نظر ذوي العقول النبيهة إلى استغلال زمن ما محبوب عند الله تعالى للتكثير من الأفعال المطلوبة شرعاً للبحث عن مضاعفة الأجر وما فيه من استمطار للرحمات وجلب للخيرات ودفع للملمات.

وليلة القدر أيضاً لا تخرج عن هاته القاعدة البيداغوجية القرآنية التي تنبهنا إلى مكانتها العظيمة بين ليالي رمضان بل ليالي السنة كلها «وما أحرأك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من ألف شهر»³، فليلة القدر في عظمها وفضلها عند الله على العباد خير من ألف شهر والحكمة والمغزى من ذلك أن العمل فيها والاجتهاد خير من الدهر كله لأن العرب تستعمل كلمة ألف لبيان بلوغ الغاية من الشيء، قال تعالى: (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة)⁴.

ولا غرو أننا إذا تأملنا الغاية والمقصد الذي من أجله أعطى الله عز وجل كل هاته المكانة لهاته الليلة العظيمة سنجد أن اقترانها بتنزل أعظم كتاب من السماء على أعظم مخلوق نال المكانة نفسها لنفس السبب سنتحقق من مكانة القرآن الكريم عند الله سبحانه وتعالى لذلك شرف قارؤه غدا يوم القيامة لاقترانهم به حيث سُموا بأهل القرآن في مختلف المناسبات من كلام الرسول الكريم صلوات الله و سلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، فقد روى النسائي وابن ماجه وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن لله أهلين من الناس، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته⁵.

ولكون القرآن خطاباً وكلاماً صار أحسن حديث يمكن أن يتلفظ به إنسان قال تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ

¹ - سورة الاسراء، الآية 79.

² - سورة البقرة، الآية 184.

³ - سورة القدر، الآية 2 و3.

⁴ - سورة البقرة، الآية 95.

⁵ - رواه ابن ماجه (215) وأحمد (11870).

وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ عِزِّ اللَّهِ عَلِيمًا فَهَذَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ¹، و تتجلى رمزية لطيفة أخرى لتوضيح مكانته الجليلة عند المولى عز وجل من خلال القسم به في مختلف مواطن القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْعَبِيدَ﴾²، وقوله عز وجل: ﴿يَس وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾³.

لقد شرف بالقرآن الكريم أناسٌ وحطَّ الله من قيمة أناس آخرين بسبب تعظيمهم للقرآن أو تنقيصهم من مكانته، حيث قال عمر بن الخطاب: أما إن نبيكم قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين"⁴. بقدر قرب العبد من مخالطة الآيات القرآنية بقدر قربيه من الله تعالى، وبقدر ابتعاده عن كتاب الله بقدر انحطاط قيمته عند مولاه.

إذا أخضعنا قضية المولد النبوي الشريف لنفس القاعدة سنصل إلى أن ذلك اليوم وإن لم يخصه القرآن الكريم بالحديث عن فضله وقيمه عند الله، فقد أوماً لذلك بعدة قرائن لا تخفى على نبيه، فإن كان مقام إبراهيم نال الفضل الكبير بإبراهيم عليه السلام فقل لي كيف لا ينال يوم مولده صلى الله عليه وسلم وهو أكثر فضلاً و أكبر قيمة؟

وإذا شرفت ليلة القدر بالقرآن الكريم وشرفت العرب بقريش وكبرت قيمة قريش بنبيها محمد صلى الله عليه وسلم⁵ فكيف لا يشرف يوم مولده صلى الله عليه وسلم أيضاً فيستحب تكثير الصلاة فيه على هذا النبي الكريم، وهو أقل علامات البرور بخاتم المرسلين.

قد يرد علينا قائل بأننا نحدث في أمر ديننا ما ليس منه فهو رد، فنرد عليه بأنه استشهاد في غير محله، ذلك أننا أوضحنا أن كل ما سبق التدليل عليه هو من صميم الدين فتعظيم النبي من صميم الدين، وإن لم ينتبه له بعض الصحابة إلى أن نزل قول الله تعالى ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾⁶، وتعظيم كلامه النبوي الشريف لأنه صادر من فيه الشريف جعل الإمام البخاري كما هو ماثور حين قرر جمع صحيحه يتوضأ ويصلي ركعتين قبل سماع أي حديث من شيوخه، ومن ثم إضافته كتابة في الصحيح، وإن بدا الامر غريباً على البعض، فقد زكى الله

¹ - سورة الزمر، الآية 22.

² - سورة ق، الآية 1.

³ - سورة يس، الآية 1.

⁴ - أخرجه مسلم -817-.

⁵ - عن شداد أبي عمار عن وائلة بن الأسقع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله اصطفى بني كنانة من بني إسماعيل واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم.

⁶ - سورة النور الآية 61.

سبحانه وتعالى ذلك بقوله ﴿وَمَا يَنْصُقُ عَنْ الْهُوَ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾¹، قد يقول قائل: إن المقصود بالوحي هنا هو القرآن المنزل عليه لا كل أحاديثه صلى الله عليه وسلم فنرد عليه بقول المقدم بن معد يكرب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانٌ عَلَى أُرَيْكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحْلُوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ".² وهو الفهم على نهجه أغلب السلف الصالح، ولولا هذا الفهم لما استقام مضمون الآية الكريمة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾³، إذ قد لا يسلم البعض بما سيبينه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في شروحاته و تفسيراته لكلام الله عز وجل.

إنه لمن المعلوم أن الأمور بمقاصدها، وإنها لقاعدة مقاصدية أصولية وروحية في الآن نفسه، ذلك أن النيات لها شأن عظيم في تحديد حكم الشارع على الفعل، كما أن لها الفعل نفسه في تبليغ العبد مراده سواء في أموره الحسية أو المعنوية، لذلك فالمرتاب في شأن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ينبغي أن يسائل نفسه لماذا احتفل علماءنا الأوائل بالمولد ولم يروا في ذلك بأساً، بل وعلى العكس حرصوا على حضوره بخشوع لما له من رمزية في قلوبهم.

لا شك أنهم استقوا ذلك من فهمهم لمقاصد الشارع الذي علمهم تعظيم أنبيائهم بل وصلحائهم، ألم يأمر القرآن الكريم على لسان المسلمين ممن عاصروا أواخر حياة أهل الكهف بعد مماتهم بتخليد ذكراهم عبر تأسيس مسجد يبقى ضريحاً يعتبر به من بعدهم بقصتهم، فقال عز من قائل: ﴿لَتَتَخَذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾⁴، جاء في تفسير الطبري عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال "وقال المسلمون: بل نحن أحق بهم، هم منا، نبني عليهم مسجداً نصلي فيه، ونعبد الله فيه".⁵، وجاء في تفسير السعدي لنفس الآية لنتخذ عليهم مسجداً "أي: نعبد الله تعالى فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم"⁶، وكما هو حال المسلمين جميعاً حين بنوا مسجداً على روضة نبيهم الكريم صلى الله عليه وسلم ليزوره برورا به وبمجهوداته الجبارة لإيصال رسالة المولى عز وجل لجميع الأمصار على هاته الكرة الأرضية، ألا يستحق مثل هؤلاء الرجال الأفاضل وقفات تأمل وتدبر كلما سنحت

¹ - سورة النجم، الآيتان: 3 و 4.

² - رواه الترمذي (2664) وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

³ - سورة النحل، الآية 44.

⁴ - سورة الكهف، الآية 21.

⁵ - تفسير الطبري: ص 296.

⁶ - تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن: في تفسير كلام المنان، ص 473- طبعة مكتبة العبيكان.

لنا فرصة زيارتهم في أمكنتهم أو تذكركم كلما حل يوم مولدهم لندعو لهم بصلواتنا وأدعيتنا ومناجاتنا فيزيدنا برورنا بهم قربا من الله عز وجل، وهل نحتاج دليلا حتى نفعل ما هو خير.

ندوات فكرية تعقد في دول عدة لإحياء فكر فيلسوف معين لنستقي نظريات جديدة من تراث قديم، أيام دراسية دولية تُنظم من أجل التفكير في ما يمكن استخلاصه من حياة علماء أفاضل مروا عبر التاريخ، أليس ذلك أحرص ما يمكن أن نحرص عليه كأمة إسلامية من أجل سن سنة حسنة ننظم فيها ندوات وأيام دراسية ومجالس ذكر وفكر أيام ذكرى المولد النبوي الشريف لنستخلص العبر ونطور النظريات من منهج وطريقة وسيرة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام في دينه ودنياه ولشخصه الكريم ولأزواجه وآل بيته وصحابته وأمتة جمعاء.

مجموعات فقهية أصبحت تعقد لتطوير الفقه الإسلامي ولإنتاج موسوعات دينية تسهل علينا فهم ديننا رغم أنها لم تكن يوما مذكورة في قرآن ولا سنة، لكن قضية أنها مرغوبة شرعا لهو أمر مُسلم به من طرف كل عاقل، لأن ذلك من السنن الحسنة التي تزكي العقل الإسلامي فردا وجماعة، رغم أن ظاهرها بدعة لأنها لم تكن عصر الرسول، وإنما هي من البدعة الحسنة التي لفاعلا أجراها وأجر من عمل بها وغير داخلة في مضمون حديث الرسول الكريم "كل بدعة ضلالة و كل ضلالة في النار"¹، أو قوله صلى الله عليه وسلم: (وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة)² لأن المقصود من البدعة في هذا الحديث هو البدعة في الدين مما ليس له أصل في الشرع، وأما أن يكون أصله في الشرع كطلب العلم مثلا، ونحدث منهجا جديدا في طلبه فهذا من السنن الحسنة والبدع المستحسنة.

إشراقات إيمانية تحل بقلوب أحباب رسول الله ﷺ، فيبتهجون لذلك غاية ما يكون الابتهاج لتحقيقهم بمعنى الحديث النبوي الشريف (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)³.

قال ابن رجب⁴: " محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أصول الإيمان ، وهي مقارنة لمحبة الله عز وجل، وقد قرنهما الله بها، وتوعد من قدم عليهما محبة شيء من الأمور المحببة طبعاً من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ

¹ - أخرجه مسلم في صحيحه.

² - أخرجه أبو داود في السنن 4067.

³ - رواه البخاري في صحيحه.

⁴ - انظر فتح الباري لابن رجب الحنبلي ج 1 ص 48.

وَأَزْوَاجَكُمْ وَعَشِيرَتَكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تُرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَلًا فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ¹ ، ولما قال عُمَرُ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم : « لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم : « الْآنَ يَا عُمَرُ »² .

فهل يا تري نستطيع أن نلوم محبا في تصرفاته إذا بالغ فيها ولم تخالف قواعد الشرع؟ هل نستطيع مثلا أن نلوم ثابت البناني الذي قص عنه مفتي الديار المصرية علي جمعة في كتابه "اعرف نبيك" أنه كان إذا رأى أنسا بن مالك أخذ يده فقبلها ، ويقول يد مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنقول نحن إذا فاتنا ذلك حجر معظم بمنزلة يمين الله في الأرض مسته شفتا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ثمن له"³ .

وقد اعتبر نفس المؤلف الدكتور علي جمعة⁴ أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من أفضل الأعمال وأعظم القربات عند الله تعالى لأنه تعبير عن الفرح بنبينا عليه الصلاة والسلام ومحبة النبي أصل من أصول الإيمان حيث صح عنه صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)⁵ .

إذا كان القياس من أفضل الوسائل العقلية التي تجعلنا نمشي على نفس درب العظماء باطمئنان على أننا على نفس الدرب نسوق مثال بني إسرائيل حين طُلب من نبيهم موسى من بعد نجاته هو وقومه من فرعون وعمله ، أن "وذكرهم بأيام الله"⁶ ، بمعنى بأن تلك الأيام في السنة ينبغي أن تكون رمزا للمؤمنين في الأرض للعبادة وتذكر أن الاعتصام بحبل الله والتحلي بالصبر لهما سبيل واضح لنجاة الصالحين من كل ملمة.

انظروا معي أيها السادة القراء الأفاضل ، حين يطول انتظار شخص ما أو أشخاص أكثر لتحقق شيء ما أو إنجاز ما ، وبعد طول انتظار تأتي ساعة إحراز ذلكم الإنجاز ، أليس تكبر فرحة

¹ - سورة التوبة، الآية 24.

² - رواه البخاري في صحيحه.

³ - علي جمعة، مفتي الديار المصرية، اعرف نبيك ص 133 دار نهضة مصر للنشر.

⁴ - نفسه

⁵ - أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس.

⁶ - سورة إبراهيم، الآية 7.

الحاضرين، أولا يجعلونها في كثير من الأحيان ذكرى تخلد في أوطانهم حتى تتذكرها جميع الأجيال لتذكي روح الصدق والوطنية مثلاً إذا كان ذلك الإنجاز له علاقة بالوطنية، فكذلك الأمر حين يتعلق بالفرح بولادة نبي طال وقت انتظاره حيث بشرت به كتب السابقين جاء في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿وإنه لفرز الأولين﴾ بمعنى كتب الأولين حيث تخبر كتب التفسير¹ أن رسولنا الأكرم قد جاء التبشير ببعثته في مختلف الكتب السماوية السابقة وصدقوا بذلك.

إذا فأمر طبيعي جداً، بعد طول الانتظار هذا، أن تفرح الأمة وتفخر ببعثته من بينهم فيخلدون يوم ولادته كرمز للمحبة التي أراد غراسها بين بني البشر، فنكثر في ذلك اليوم من الحمد والشكر القلبي عبر الإكثار من الصلاة والسلام على رسولنا أفضل الصلاة والسلام عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وقد سن الله سبحانه وتعالى الصيام للمؤمنين في أيام من الله عليهم بنعمة ما، وإن أعظم المنن على المؤمنين أن بعث منهم رسولاً نبياً، لذلك يقول تعالى ﴿لقد من الله على المؤمنين﴾ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم فأفضل النعمة أن يبين لك الطريق إلى الفلاح عن طريق رسول من عنده ومن نفس جنس البشرية حتى يكون قدوة حسنة لإمكانية تحقيق المطلوب في الشرائع السماوية، فكون نبينا الأكرم صلوات الله عليه وسلم من نفس جنسنا ومن أنفسنا يسهل علينا التشبه بأحواله وأقواله وأفعاله، ونفهم منه شروحاته وتفسيراته لأنه يتكلم من جنس كلامنا ونفس خطابنا.

يرى الدكتور على جمعة أن "النعمة على الأمة بإرساله أعظم من النعمة عليهم بإيجاد السماء والأرض والشمس والقمر والرياح والليل والنهار وإنزال المطر، وإخراج النبات وغير ذلك، فإن هذه النعم كلها قد عمت خلقاً من بني آدم كفروا بالله وبرزله وبلقاء الله، فبدلوا نعمة الله كفراً، فأما النعمة بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم فإن بها تمت الصالحات في الدنيا والآخرة وكمل بسببها دين الله الذي رضي الله لعباده وكان قبوله سبب سعادتهم في دنياه وآخرتهم، فصيام يوم تجددت فيه هذه النعمة من الله تعالى على عباده حسن وجميل وهو من باب مقابلة النعم في أوقات تجدد بالشكر²، وأما الشيخ محمد بن علوي المالكي الحسني صاحب كتاب "مفاهيم ينبغي أن

¹ - انظر تفاسير اللغوي والسعدي والطبري وابن كثير وغيرهم لنفس الآية الكريمة.

² - على جمعة مفتي الديار المصرية، اعرف نبيك، ص133.

تصحح" والإمام بدار الهجرة يرى أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ثابت بالأدلة بأنه داخل تحت كلية التعظيم والمحبة للجناب المحمدي ولم يشتمل على المنكرات (لذلك) فهو جائز"¹.

لم يقسم الحق سبحانه وتعالى يوما بعمر أحد على وجه الأرض إلا بعمر حبيبه صلى الله عليه وسلم، فقال عز من قائل ﴿لَعَمْرُكَ أَنهْم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾²، فإن كانت حياته لها هاته القيمة العظيمة عند الله تعالى لما سخرت له من مقاصد عظيمة أرادها الحق سبحانه، فكيف لا يكون يوم واحد من حياته رمز لنا لتعظيم حياته صلى الله عليه وسلم في قلوبنا وهي أصلا معظمة عند الحق سبحانه.

ختاما لا يسعنا إلا تأكيد ما سبق من التدليل على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لما يحقق من مصالح ومقاصد شريفة مطلوبة شرعا من فرح برحمة الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾³ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾⁴ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾⁵، ومن المحبة لرسول الأمة الكريم صلى الله عليه وسلم وتعظيم وتبجيل له نحقق به تعظيم الحق عز وجل الذي أرسله إلينا من أنفسنا حتى يتحقق مقصد الأسوة الحسنة وما فيه من تشجيع على القيام بالصالحات لأنها تدخل ضمن الممكن بشريا تحقيقه على الأرض من أجل إعمارها أحسن إعمار.

إن مقاصد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف كثيرة جمة، اقتصرنا على بعضها في هذا المقام، وإلا فهو موضوع يستحق التأليف فيه مقدار كتاب كامل يتناول الدرس والتحليل لمقاربة الموضوع في شمولية تحيط بكل جوانبه ووجوهه، فنعتبر من خلال هذا المقال أنه دعوة لي شخصا ولكل الباحثين في العلوم الشرعية لتتوير المؤمنين بأنهم في صميم الدين حين الفرح برسولهم الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

¹ - الإعلام بفتاوى أئمة الإسلام حول مولده عليه الصلاة والسلام، محمد بن علوي المالكي الحسني، العلامة السيد.

² - سورة الحجر، الآية 72.

³ - سورة الأنبياء، الآية 106.

⁴ - سورة الأعراف، الآية 156.

⁵ - سورة يونس، الآية 58.

الاحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم فرحا وسرورا

د. سعيد المغناوي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس.

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا وحبينا محمد المصطفى الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فقد شرع المسلمون في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، ففي المغرب الأقصى، أول من احتفل بالمولد النبوي الشريف، هم بنو العزفي أصحاب سبتة.¹ وكان الداعي إلى الاحتفال به، أبو العباس العزفي (ت633هـ). وقد ألّف لهذه الغاية كتابا، أسماه (الدر المنظم في مولد النبي المعظم)²، ولم يكمله فأكمّله ابنه أبو القاسم (ت677هـ)، وكان يجيز فيه. وكان من الذين أجازهم في ذلك، الخطيب أبو علي بن الخطيب أبي فارس بن غالب الجمحي، مع جماعة من أهل سبتة وأعيانها حين قرأوه عليه بالجامع الأعظم من سبتة في شهر ربيع الثاني من عام (657هـ)، فقال: «أجزت لك بحق روايتي لما فيه عن أبي ومشاركتي له في تأليفه على حكم الإجازة وشرطها وصحة الرواية عاشر الربيع المذكور»³.

وأبو القاسم هذا، هو الذي أصبح حاكما لسبتة سنة (647هـ)⁴. وكان ذلك في عهد الخليفة الموحي عمر المرتضى (646-665هـ)، الذي مما يُذكر له أنه كان شاعرا، وأن شعره ردّد فيه ما

¹ - الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، (تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء)، 90/3.

² - يذكر فيه بعض ما خصّ الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم، وفضله على كل من تأخر من خلقه أو تقدم، وما امتن به عليه وعلى أمته، بأن جعله أفضل الأنبياء وجعلهم أفضل الأمم. ويحثّ فيه المسلمين على اتخاذ مولده الكريم موسما، يتركون به ما كانوا يقيمونه من أعياد النصارى وعوائدهم. وقد قسمه إلى واحد وأربعين فصلا: الفصل الأول في (وجوب معرفة مولده على كافة أمته، وأن يكون فروض كفايته على علماء ملّته). والفصل الحادي والأربعون في (ذكر وفاته، وما أصيب به المسلمون من فقد ذاته وعدم حياته، وعموم الرزية لأهل ملّته، وأنه فرط لمن ليس له فرط من أمته). أما المقدمة، فقد تحدث فيها عن البدع والمحدثات. [انظر: النسخة المخطوطة لكتاب الدر المنظم في مولد النبي المعظم صلى الله عليه وسلم بالخرانة العامة بالرباط، تحت رقم 2748 د].

³ - أزهار الرياض في أخبار عياض، المقرئ، 374/2-376.

⁴ - تاريخ سبتة، محمد بن تاويت، (دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1402هـ/1982م)، ص: 110.

دعا إليه أبو العباس العزفي في سبته، من إقامة المولد النبوي والاحتفال به. وأنه كان يقوم بليلة المولد خير قيام، ويفيض فيه الخير والإنعام. وأن الذي أشار بذلك الرأي عليه، هو أبو القاسم العزفي، حين أتم تأليف (الدر المنظم في مولد النبي المعظم)، وبعث به إليه.¹

ومنذ ذلك الحين، وملوك المغرب يولون اهتماما كبيرا للاحتفال بالمولد النبوي. ففي سنة (691هـ) - مثلا - أمر السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني (685-706هـ) بعمل المولد النبوي وتعظيمه والاحتفال به، وجعله عيداً من الأعياد في جميع بلاده.²

وثبت عن السلطان أبي عنان المريني (749-759هـ) أنه كان يحتفل بالمولد النبوي بمدينة فاس، ويستدعي الشريف أبا العباس أحمد بن سيدي محمد كل سنة لحضور تلك الاحتفالات.³ بل من المؤرخين من ذهب إلى القول بأنه أول من اعتنى بتعظيم المولد النبوي في البلاد المغربية، وأظهر شعائر الولادة المحمدية، ثم اقتدى به بنو أبي حفص في الديار التونسية.⁴

أما السلطان أحمد المنصور الذهبي (986-1012هـ)، فقد فاق من سبقه من الملوك في هذا المجال. وقد وصف لنا وزيره الفشتالي (ت1031هـ)، ما جرى به العمل في الاحتفال بالمولد النبوي في عهده، وذلك في كتابه (مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء).⁵

ولما جاء ملوك الدولة العلوية الشريفة، أقاموا احتفالات بهذه المناسبة على طريقتهم، ولازالوا إلى اليوم يحتفلون بالمولد النبوي الشريف. وقد ألف ابن الحاج أحمد بن محمد بن حمدون (ت1316هـ) كتاباً حول عاداتهم فيه.⁶

وقد كان القصد من إقامة مثل هذه الاحتفالات قديماً وحديثاً، هو إظهار الفرح والسرور بمولده صلى الله عليه وسلم؛ قال ابن الحاج العبدري الفاسي (ت737هـ) في (المدخل): «فتشريف هذا اليوم، متضمن لتشريف هذا الشهر الذي ولد فيه. فينبغي أن نحترمه حق الاحترام، ونفضله بما فضل الله به الأشهر الفاضلة...»⁷، وقال أيضاً: «فانظر رحمنا الله وإياك، إلى ما خص الله تعالى

¹ - تاريخ سبته، محمد بن تاويت: ص 116-117.

² - الاستقصاء، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، 90/3.

³ - أزهار الرياض في أخبار عياض، المقرئ، 39/1.

⁴ - المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ابن أبي دينار، ص: 306-307.

⁵ - مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء، الفشتالي، (تحقيق عبد الله كنون، منشورات كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، وبمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي، وتحت إشراف معهد مولاي الحسن للبحوث، الرباط)، 221/2-243.

⁶ - انظر: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، لعبد العزيز بن عبد الله، (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1395هـ/1975م)، 65/1.

⁷ - المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، ابن الحاج، (دار الفكر، بيروت)، 3/2.

به هذا الشهر الشريف، ويوم الاثنين. ألا ترى أن صوم هذا اليوم فيه فضل عظيم، لأنه صلى الله عليه وسلم ولد فيه؟ فعلى هذا، فينبغي إذا دخل هذا الشهر الكريم، أن يُكْرَمَ ويُعْظَمَ ويحترم الاحترام اللائق به. وذلك بالاتباع له صلى الله عليه وسلم، في كونه عليه الصلاة والسلام كان يخصّ الأوقات الفاضلة بزيادة فعل البرّ فيها وكثرة الخيرات...¹، وقال ابن عباد النفزي الرندي الفاسي (ت792هـ)، حين سئل عن المولد وما يقع فيه من وقود الشمع وغير ذلك: «وأما المولد، فالذي يظهر لي أنه عيد من أعياد المسلمين، وموسم من مواسمهم. وكل ما يُفعل فيه، مما يقتضيه وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك؛ من إيقاد الشمع، وإمتاع البصر والسمع، والتزيّن بلبس فاخر الثياب، وركوب فاره الدواب- أمر مباح لا ينكر على أحد، قياسا على غيره من أوقات الفرح. والحكم بكون هذه الأشياء بدعة، في هذا الوقت الذي ظهر فيه سر الوجود، وارتفع فيه علم الشهود، وانقشع بسببه ظلام الكفر والجحود، وادعاء أن هذا الزمان ليس من المواسم المشروعة لأهل الإيمان، ومقارنة ذلك بالنيروز والمهرجان. أمرٌ مستثقل تشمئز منه القلوب السليمة، وتدفعه الآراء المستقيمة»²، وقال أيضا: «ولقد كنت هنا فيما خلا من الزمان، خرجت في يوم مولدٍ إلى ساحل البحر، واتفق أن وجدت هنالك سيدي الحاج ابن عاشر رحمه الله وجماعة من أصحابه، وقد أخرج بعضهم طعاما محتفلا ليأكلوه هنالك. فلما قدّموه لذلك، أرادوا مني مشاركتهم في الأكل، وكنت إذ ذاك صائما، فقلت لهم: إني صائم. فنظر إليّ سيدي الحاج نظرة منكرة، وقال لي ما معناه: إن هذا اليوم يوم فرح وسرور، يُستفتح في مثله الصيام بمنزلة يوم العيد. فتأملت كلامه فوجدته حقا، وكأنني كنت نائما فأيقظني»³.

وقد استدلل العلماء المسلمون، على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بأمر كثيرة،

منها:

- 1- ما جاء عن عروة أنه قال: «وَتُوِيَّةُ مَوْلَاةٌ لِأَبِي لَهَبٍ، كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ أُرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرِّحِيَّةٍ، قَالَ لَهُ: مَاذَا لَقِيتَ؟ قَالَ أَبُو لَهَبٍ: لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُمْ خَيْرًا، غَيْرَ أَنِّي سَقَيْتُ فِي هَذِهِ بَعْتَاقَتِي تُوِيَّةَ»⁴

¹ - المدخل، ابن الحاج، 3/2.

² - الرسائل الكبرى، ابن عباد، (المطبعة الحجرية، فاس، 1320هـ)، ص: 37.

³ - نفسه، ص: 37.

⁴ - صحيح البخاري (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ/1992م): كتاب النكاح، باب قوله تعالى: «وَأَمْهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ»، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، الحديث رقم 5101.

قال شمس الدين الجزري: «إِذَا كَانَ أَبُو لَهَبٍ الْكَافِرَ، الَّذِي نَزَلَ الْقُرْآنَ بِذِمَّةٍ، جُوزِيَ فِي النَّارِ، بِفَرْحِهِ لَيْلَةَ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ. فَمَا حَالُ الْمُسْلِمِ الْمُوَحِّدِ مِنْ أُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، يُسَرُّ بِمَوْلَدِهِ، وَيَبْذُلُ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ قُدْرَتُهُ فِي مَحَبَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. لِعَمْرِي، إِنَّمَا يَكُونُ جَزَاؤُهُ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ، أَنْ يُدْخِلَهُ بِفَضْلِهِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ»¹.

2- ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ، فَقَالَ: (ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ)².

قال ابن الحاج في (المدخل): «فَكَانَ يَجِبُ أَنْ يُزَادَ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْخَيْرِ، شُكْرًا لِلْمَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى مَا أَوْلَانَا مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ. وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَزِدْ فِيهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِرَحْمَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَفَقِهِ بِهِمْ، كَمَا وَصَفَهُ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ﴾»³. لكن، أشار عليه الصلاة والسلام إلى فضيلة هذا الشهر العظيم، بقوله عليه الصلاة والسلام للسائل الذي سألته عن صوم يوم الاثنين، فقال له عليه الصلاة والسلام: (ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ). فتشريف هذا اليوم، متضمن لتشريف هذا الشهر...⁴ وقال محمد بن علوي المالكي: «هذا في معنى الاحتفال به، إلا أن الصورة مختلفة؛ ولكن المعنى موجود، سواء كان ذلك بصيام أو إطعام طعام، أو اجتماع على ذكر، أو صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، أو سماع شمائله الشريفة»⁵.

3- ما أخرجه أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه، قال: رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض مغازيه، فجاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله! إني كنت نذرت إن ردك الله تعالى سالماً، أن أضرب على رأسك بالدَّف. فقال: (إِنْ كُنْتَ نَذَرْتَ فَافْعَلِي، وَإِلَّا فَلَا). قالت: إني كنت نذرت. قال: فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربت بالدَّف.⁶

¹ - حكى السيوطي عنه ذلك في [حسن المقصد في عمل المولد، (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م)]، ص: 65-66؛ وكذلك القسطلاني في [المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ/1996م)]، 78/1.

² - صحيح مسلم (بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1419هـ/1998م): كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس، الحديث رقم 1162.

³ - سورة التوبة، الآية 129.

⁴ - المدخل، ابن الحاج، 2/3.

⁵ - حول الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، محمد بن علوي المالكي، (دار الطباعة الحديثية، الدار البيضاء)، ص: 7.

⁶ - مسند الإمام أحمد بن حنبل (تحقيق أحمد محمد شاكر وحزمة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1416هـ/1995م): الحديث رقم 22907.

قال ابن عباد: «وأما ما فعلتم في المولد، وما اعتراكم بسبب ذلك من أمور راجعة إلى أقوال الناس، فذلك كله معلوم وقوعه... ولا تتعجبوا من هذا الكلام، فإن له في السنة مستندا يمكن أن يُستروح إليه، وهو أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قفوله من بعض غزواته، فقالت له: إني كنت نذرت إن ردك الله سالما، أن أضرب على رأسك بالدّف... ولا شك أن الضرب بالدّف من أنواع اللّهُو، والنبي صلى الله عليه وسلم أمرها بالوفاء بنذرهما به، لما كان سبب ذلك فرحها بسلامته...»¹.

4- ما أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة، فوجد اليهود صياما، يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما هذا اليوم الذي تصومونه؟)، فقالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرا، فنحن نصومه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فنحن أحق وأولى بموسى منكم)، فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر بصيامه.²

وذهب ابن حجر العسقلاني إلى أن المولد اشتمل على محاسن، ويمكن تخريجه على أصل ثابت "وهو ما ثبت في الصحيحين، من أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء... (الحديث). فيستفاد منه، فعل الشكر لله على ما من به في يوم معين، من إسداء نعمة أو دفع نقمة، ويُعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة. والشكر لله، يحصل بأنواع العبادة، كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة. وأي نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبي، نبي الرحمة، في ذلك اليوم...»³.

5- ما أخرجه البيهقي من حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم عقّ عن نفسه بعد النبوة.⁴

قال السيوطي رحمه الله: «وظهر لي تخريجه على أصل آخر، وهو ما أخرجه البيهقي عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم عقّ عن نفسه بعد النبوة، مع أنه قد ورد أن جدّه عبد المطلب عقّ عنه في سابع ولادته، والعقيقة لا تعاد مرة أخرى. فيُحمل ذلك، على أن الذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم إظهارا للشكر على إيجاد الله تعالى إياه رحمة للعالمين، وتشريفا لأُمته،

¹ - الرسائل الكبرى، ابن عباد، ص: 64-65.

² - هذا لفظ مسلم، أخرجه في صحيحه: كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، الحديث رقم 1130.

³ - حكى السيوطي عنه ذلك في (حسن المقصد في عمل المولد)، ص: 63-64.

⁴ - السنن الكبرى، البيهقي، (تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ/1994م)، كتاب الضحايا، باب العقيقة سنة، الحديث رقم 19273، 505/9.

كما كان يصلي على نفسه لذلك. فيُستحب لنا أيضا إظهار الشكر بمولده، باجتماع الإخوان، وإطعام الطعام، ونحو ذلك من وجوه القُرْبَات، وإظهار المسرّات»¹
6- قوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾².

قال محمد بن علوي المالكي: «إن الفرح به صلى الله عليه وسلم مطلوب، بأمر القرآن من قوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾³؛ فالله أمرنا أن نفرح بالرحمة، والنبي صلى الله عليه وسلم أعظم الرحمة. قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾⁴»⁵.

نعم، لقد كان صلى الله عليه وسلم أعظم رحمة: ولادته رحمة، ومبعثه رحمة، وقوله رحمة، وفعله رحمة، وشرعه رحمة، وشفاعته رحمة. ومن ثم، كانت رحمته صلى الله عليه وسلم شاملة، عمت: الرجال والنساء والشيوخ والأطفال والمرضى والأيتام والخدم والأسرى والأرامل والفقراء والمساكين وذوي الحاجات والحيوانات والنباتات. إنه الرحمة المهداة لجميع الخلائق، بما فيهم أعداؤه ومن لا يؤمن بمبعثه وشريعته، وذلك بتأخير العذاب عنهم لما بعد الموت.

¹ - حسن المقصد في عمل المولد، السيوطي، ص: 64-65.

² - سورة يونس، الآية 58.

³ - سورة يونس، الآية 58.

⁴ - سورة الأنبياء، الآية 106.

⁵ - حول الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، محمد بن علوي المالكي، ص: 7-8.

شعر المديح النبوي: خصائصه وأغراضه

د. محمد الحجوي - سلا.

أشعار المديح النبوي من الأغراض التي أكثر فيه الشعراء في حياة الرسول عليه السلام، وبعد وفاته، ولم يتوقف هذا الغرض حتى في عصرنا الحاضر، وسيظل الشعراء في بلاد الإسلام وفي كل زمان ومكان يمدحون الرسول عليه السلام لأن أفضاله على هذه الأمة أكبر وأجل من هذا المدح، وأعظم وأسمى من كل ما قيل فيه من معاني الإجلال والإكبار والتعظيم؛ إن الذي أخرج أمة من الجهل والضلال إلى رحاب اليقين والإيمان وجعلها خير أمة أخرجت للناس لا توزن أعماله بأي ميزان ولا تقاس بأي مقياس.

ومن أفضال الله على هذه الأمة أنه بعث إليها خير رسله، حرص على تثبيت دينها وتبيين أحكامه بالقول والفعل والتقرير، وأنزل عليها كتاباً جامعاً للأحكام التي تتلاءم مع ظروف كل زمان ومكان، ويسر لها عبادتها ومعاملاتها في دنياها، فلم تحظ أمة من قبل بهذه المزية، إنها فضيلة ومكرمة من الله عز وجل تجاه هذا الرسول الكريم لهذه الأمة التي ستكون شاهدة على جميع الأمم.

وما يميز قصائد المديح النبوي من الناحية الفنية هو الصدق في المشاعر والأحاسيس، لأن الشعراء لم يقصدوا من هذا المدح التقرب إلى حاكم لنيل إعطياته أو للحصول على منصب سياسي أو جاه ومكانة في الدنيا مثل ما كان يطمح إليه الكثير من الشعراء الذين مدحوا الخلفاء والأمراء والأعيان وأصحاب الجاه والسلطان؛ إن الدافع إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع القصائد التي مدح بها عليه السلام كان من منطلق التعبير عن أخلاق وأفضال هذا الرسول وما خصه الله به من معجزات وآيات، وما أبلى وتحمل من مشاق في سبيل تبليغ الدعوة كما أمره الله بها، وإظهار الحب الصادق لذاته الشريفة ولأهل بيته الطاهرين، وهم أجدر الناس بالحب والتبجيل والتعظيم والتكريم، إذ ليس في الدنيا من يستحق الحب والإكرام والإجلال مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته الطاهرين، نحبهم أكثر مما نحب أنفسنا وأولادنا وآباءنا، ولا يتحقق إيمان المسلم إلا بهذا التفضيل والتقدير والإجلال والطاعة لخير مخلوق جعل الله طاعته من طاعته

قال تعالى: ﴿أَصْبِعُوا اللَّهَ وَأَصْبِعُوا الرُّسُولَ﴾¹. وقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَمْشُونَ كُلًّا رِزْقًا مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّبِعُوا أَمْرًا مُسْتَقِيمًا﴾².

ولهذا السبب ما أقدم شاعر على مدح الرسول عليه السلام إلا وانطلق من هذا الحب الدفين والإعجاب الكبير والتقدير المطلق للذات الطاهرة، وليعبر بأسمى المعاني في غرض شريف وجليل يخلده الزمان وتزهو به الدنيا، ويعبر به عن سمو حبه لهذا الرسول الصادق الأمين، فليس هناك أدنى شك في تلك المعاني وفي تلك العواطف والأحاسيس والمشاعر التي عبر بها كل شاعر في قصائد المدح النبوي.

والباحث في هذا الغرض لا يمكن أن يحيط بكل ما قيل من معان سامية وصور فنية بديعة في هذا الرسول الأمين مهما اجتهد في البحث والدراسة والتتبع والتقصي لكثرة هذه القصائد وتعدد مواطنها وبيئاتها وامتدادها في الزمان والمكان، فهذا المدح نشأ في كل بيئة إسلامية في المشرق والغرب الإسلامي؛ وهذه الكثرة في عدد القصائد والغنى في المضامين والإحسان والجودة في المعاني والصور ناتجة عن عوامل متعددة منها:

أولاً: إن الرسول صلى الله عليه وسلم شخصية متفردة في تاريخ البشرية، وهذا التفرد اكتسبه عليه السلام من كل الجوانب التي تجعل المخلوق كاملاً فبخلقته وخلقه المثالي في السلوك والصبر والحفاظ على الأمانة والوفاء بالعهود، وفي المواقف الإنسانية النبيلة التي يتسابق إليها ذوو النفوس العالية مثل الحلم والكرم والشجاعة والإقدام وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم والتواضع. ومثل هذه الشخصية التي تعددت محاسنها بكل المقاييس وانعدمت فيها العيوب ولو كانت هينة لا يوجد لها مثيل في المخلوقات على الإطلاق، ولا يمكن لأي باحث أو دارس الإحاطة بجميع إيجابيات هذه الشخصية الفذة، لأنها من عطاء الله الذي خص به رسوله دون سائر المخلوقات، فلذلك كان أكثر الشعراء يتناولون جانباً أو جوانب محصورة من محاسن شخصية الرسول عليه السلام الذاتية أو المعنوية لعلهم يستطيعون استيفاء وصفها والإحاطة بما وهبه الله من صفات جليلة وأخلاق عظيمة ومواقف إنسانية مثالية. وهل يستطيع شاعر أو دارس مهما أوتي من قدرة في الوصف ومهارة في التعبير وصبر في التأنّي للأمور أن يحيط بصفة واحدة من صفات الرسول عليه السلام مثل النبل

¹ - سورة النور: 52.

² - سورة التوبة: 24.

والخلق ورجاحة العقل والحلم والحكمة والرزانة والصبر والأمانة وسلامة الفكر وبلاغة المنطق وبعد النظر؟ إن من يدعي ذلك يكون واهما وغير مدرك للمكارم التي جمعها الله في رسولنا عليه السلام لتكون النموذج المثالي للمخلوق المكرم.

ثانيا: إن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أنقذ أمة كانت غارقة في الضلال والشرك والجهل وجعلها خير أمة أخرجت للناس في العبادة والسلوك والأخلاق والمعاملات - وكل فرد من هذه الأمة يؤمن بهذا الدين إيمانا صادقا يشعر بهذا الفضل الكبير عليه - فإنه من الواجب على كل مسلم أن يقر بذكر أفضال الرسول صلى الله عليه وسلم عليه بأن يجعل سيرته العطرة نموذجا في عبادته وحياته اليومية، وبالإكثار من الصلاة والتسليم عليه كما أمرنا الله بذلك لأن في ذلك اعترافا بالجميل وتقديرا لمن حمل له نورا يضيء طريقه. وأخلاق المسلم تقتضي الإقرار بأفضال الآخرين عليه وشكرهم ولو بالكلمة الطيبة، فكيف بمن أنقذه من الضلال وجعله ينعم بحلاوة الإيمان ويسلك طريقا آمنا من الزلل والعثرات في حياته الدنيا والأخرى؟

ثالثا: إنه الرسول الذي أدى الأمانة بصبر لا مثيل له من بين سائر الرسل والأنبياء، وجاهد في سبيل الله جهادا متواصلا منذ أن أمره الله بتبليغ الدعوة، فلم يعرف الكسل والتباطؤ ولم تغره زينة الحياة الدنيا حتى أذعن الناس لليقين وعرفوا الحق الذي جاءهم من ربهم، ولم يدع على قومه بالهلاك مثل رسل آخرين، لأن رسالته عليه السلام هي المنقذة للبشرية كلها من النار، إنها الرسالة الخاتمة، فإما أن يعلو الحق ويزهق الباطل، وإما أن تستمر البشرية في ضلالها وشركها وهمجيتها وتلقى مصيرا مؤلما مثل الأمم التي أصرت على الكفر والضلال قبلها. وقد أراد الله ظهور الحق وإعلاءه - ولا راد لمشيئته - فكان صبر الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لا مثيل له امتثالا لأمر ربه ومظهرا لإعلاء كلمة الحق التي أرادها الله أن تعلو في كل زمان ومكان "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین"¹.

إنه المنهج السليم الذي يبلغ به كل داعية في سبيل الله مراده. وبفضل جهاد الرسول الصادق عرف قومه في النهاية ما كانوا فيه من ضلال وشرك وجهل، وما اقترفوا من ذنب في حق أنفسهم. وما كان الله ليخذل هذا الرسول الصادق الأمين أو يعذب أمتة وهو بينهم يدعو الله دوما ليهديهم، ويجاهد في سبيل ذلك جهادا صادقا، فأنتم الله هذا النور على أمتة التي أراد لها أن تكون أسعد

¹ - سورة الأعراف: 199.

الأمم، وأفضلها عبادة وتقوى وسلوكاً ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾¹.

رابعاً: إن سيرته عليه السلام في طفولته وشبابه وفي مرحلة الدعوة في مكة والمدينة تعتبر من السير البشرية النموذجية التي بلغت مثالا عالياً في الكمال ليس بالنسبة للمسلمين فقط وإنما للبشرية كلها في كل زمان ومكان؛ إنها السيرة التي تعرف بها الإنسانية سعادتها في الإيمان الصادق والعمل الصالح والأمن والثقة بالنفس والصبر واحتمال الأذى في سبيل الوصول إلى المعالي وشرف الأمور، وهذا ما يسعى للوصول إليه كل إنسان نبيل طموح يريد أن يخلد حياته في الصالحات، فينبغي لذلك التعريف بها، وبيان تفاصيلها، وما خصه الله به من آيات ومعجزات لتكون هذه السيرة العطرة عبرة لذوي الأبصار والعقول في اتخاذ القرارات والمواقف، وفي التفكير في عظمة الله وحكمته وقدرته المطلقة على نصرته الحق على الباطل، وكسر شوكة الظالمين مهما طال ليل ظلمهم. والبشرية منذ أن أوجدها الله في هذه الأرض تحثي برجالها العظام وتكرم أبطالها، وهذا الرسول أحق بالاحتراف والتكريم والتبجيل من سائر الناس، ولو تمنعوا في سيرته عليه السلام بدون تعصب وكراهية لأدركوا هذه الحقيقة وأقروا بها.

لهذه الأسباب فإن الشعراء لم يتوقفوا عن مدح الرسول المختار اعترافاً بما أسداه لهذه الأمة من أفضال ومكارم، فكان عليه السلام كالطيب لا يصدر منه إلا العطر الفواح الذي ينعم به الجميع. فلذلك ينبغي أن يقتدي الناس بهذه السيرة العطرة ويعلموا أطفالهم من خلالها كيف يسلكون طريق المجد في حياتهم، وكيف يسعدون في دنياهم وآخرهم، إنها سيرة تنير طريقهم وتبلغهم مسالك النجاة في الحياة الدنيا والآخرة، وهذا أجل ما يسعى إليه الإنسان في هذه الحياة. ولم يشعر أي شاعر طيلة هذه القرون في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي أنه عجز عن إيجاد المادة الخصبة لغرض مدح الرسول صلى الله عليه وسلم سواء كان ذلك في وصف خلقته أو خلقه المتمثل في عبادته وصدقه وأمانته وصبره وجهاده وحلمه وبلاغته وفصاحته وحسن تأتية للأمور بحكمة وتعقل وبعد نظر في كل ما صدر منه، فكل شاعر تناول هذه الجوانب من الجهة التي أعجب بها أو رآها معبرة للتعريف بهذا الرسول الذي كثرت أفضاله على البشرية، ولولاه لما تميز إيمان من شرك ونور من ظلام وخير من شر، ولكان الكل صالحاً في النار. وقد أدرك العرب هذه الحقيقة في حياته عليه السلام، وهم الذين عانوا من ظلام الشرك ورجس الجاهلية في كل ما فعلوه من مثالب ألحقت الضرر بأنفسهم ومجتمعهم، وما مورس عليهم من ظلم السادة الأقوياء بالاستعباد ونهب ثرواتهم

¹ - سورة الأنفال: 33.

وقتلهم وتعذيبهم، فأطلت عليهم رسالة الرحمة على يد هذا الرسول الأمين في المرحلة التي بلغوا فيها حافة الانهيار والتمزق بالتفرقة والحروب والهوان والظلم الاجتماعي، فلم يعد يظهر لهم في الأفق إلا الظلام والمصير المجهول، فأنعم الله عليهم بنعمة الإسلام ليعرفوا بحق ما كانوا فيه من ظلام الشرك والجهل والضلال، وما أصبحوا فيه بفضل هذا الدين من نعمة الإيمان بالله الواحد والأخوة والمحبة التي تشد أزهم وتقويهم وتوحدهم، وبالأمن الذي يحميهم من ظلم الطفلة المستبدين، فأصبحوا في نعمة بفضل هذا الدين لم يألفوها من قبل، إنها نعمة الأمن والسلام والتكافل الاجتماعي والحقوق الفردية والجماعية والأخوة، والتسابق لكل مجالات البر والإحسان ليس افتخارا بالعطاء والبذل مثل ما كانوا يفعلون في جاهليتهم وإنما من أجل التقرب إلى الله ونيل رضاه، وهذه هي الأعمال التي تستمر ولا تتوقف نتيجة أحقاد أو ضغائن أو صراعات مذهبية وفكرية. وحينما مدح الشعراء الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته بمعان تدل على تقديرهم لنعمة الإسلام الذي حملة لهم فإنهم كانوا يدركون أثر هذه النعم الجليلة على حياتهم وعلى أبنائهم وعلى مجتمعهم الذي أصبح لأول مرة يعرف الأخوة والأمن والتعاون. لقد سمعوا كلاما في كتاب الله لم يألفوا مثله في الجاهلية برغم علو مكانتهم في البيان ورجاحة العقل، ولم يروا من يدعو إليه في مجتمعهم إلا قلة من الأحناف الذين لم يجدوا من يستمع إليهم لإصلاح الأوضاع الفاسدة التي كانت سائدة بينهم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَن تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ فَمَنْ زُكِرْكُمْ وَإِلَهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَصُرَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا نَكْفِ أَنْفُسًا إِلَّا وَمَعَهَا وَإِنَّا قَلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ غَا قَرِبُوا يَعْنِي اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوا وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»¹.

هل يوجد أفضل من هذا المنهج في السلوك والأخلاق والمعاملات في الحياة الفردية والاجتماعية؟ ليس بعد الإيمان بالله والإقرار بنعمه والعمل بما دعا إليه من أعمال صالحة إلا الكفر والضلال والطيش والسفه، وهو ما كان عليه أكثرهم في جاهليتهم. وقد عرف الأوائل من المسلمين نعمة هذا الدين عليهم، فاحتملوا العذاب من المشركين بجميع صنوفه، وهاجروا لديار أخرى تاركين الأهل والمال والوطن في سبيل النجاة بدينهم الذي أنقذهم من العبودية والذل وارتكاب

1- سورة الأنعام: 152-154.

الفواحش والرذائل التي لا تليق بالإنسان الشريف أن يراها في نفسه وأولاده وأقربائه ومجتمعه، قال عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم - وكان من الذين هاجروا إلى الحبشة فرارا بدينهم من ظلم قومهم ومن حياة الشرك والضلال التي كانوا فيها - يذكر ما لقي المسلمون الأوائل من قومهم من اضطهاد لمجرد أنهم آمنوا بدين الحق الذي جاء به المصطفى عليه السلام، وما وجدوا في موطن هجرتهم من استقرار وأمن على دينهم وأنفسهم وأموالهم:

يا راكبا بلغن عنى مغفلة	من كان يرجو بلاغ الله والدين ¹
كل امرئ من عباد الله مضطهد	بيطن مكة مقهور ومفتون
أنا وجدنا بلاد الله واسعة	تتجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز	ي في الممات وعيب غير مأمون
إنا تبعنا رسول الله واطرحوا	قول النبي وعالوا في الموازين ²
فاجعل عذابك بالقوم الذين بغوا	وعائذا بك أن يعلوا فيطغوني ³

هكذا عبر المسلمون الأوائل عن مآسيهم ومعاناتهم مع قومهم الذين كذبوا الرسول عليه السلام وآذوه مع الفئة القليلة التي آمنت به، فكانت الهجرة والبعد عن الأهل والوطن أهون من الإقامة في دار الذل والهوان، وسبيلا للنجاة بدينهم الذي أعاد لهم كرامتهم وإنسانيتهم بعدما كانوا في شرك وضلال وتفرقة وارتكاب للفواحش ما ظهر منها وما بطن. لم تكن هناك حجب تخفي عن هؤلاء الأوائل الذين أسلموا ما في هذا الدين من نعم عليهم، لقد عرفوا حقيقة هذا الدين وما حمل لهم من فضائل في الدنيا قبل الآخرة بعدما كانوا غارقين في الآثام والاقتتال والكراهية؛ لقد اعتنقوا الإسلام بصدق وأخلصوا لرسولهم عليه السلام لما لمسوا في دعوته من تعاليم ربانية تجعلهم يخضعون لله وحده، ويؤمنون بدين يرفع عنهم الأغلال التي قيدتهم زمنا طويلا، والعبودية التي أذلّتهم في مجتمع لا يرحم الضعاف. فليس هناك مجال للمقارنة بين عصر الجاهلية المليء بالمساوي في العبادة والمعاملات والسلوك غير الإنساني، وبين الدعوة التي جاء بها المصطفى لصفاء الروح واطمئنان النفس والشعور بالارتياح لكل مادعاهم إليه في العبادات والسلوك والمعاملات والعلاقات الفردية والاجتماعية، إنها علاقات تقوم على المحبة والتعاون والبر والإحسان والتآزر لنيل رضا الله

¹ - المغفلة: الرسالة ترسل من مكان إلى آخر.

² - عال في الميزان: خان.

³ - السيرة النبوية لابن هشام: 353-354. تحقيق. مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. دار إحياء التراث العربي. بيروت-لبنان.

بدل الحروب والفتن والصراعات التي أصبحت عندهم ظاهرة اجتماعية متميزة، لا تتوقف حرب حتى تشتعل أخرى وكأنهم في سباق مع هذه الحروب المدمرة؛ لقد أشرق عليهم عهد جديد بكل المقاييس وكأنهم ولدوا لأول مرة لينعموا بهذا العهد. هذا الإحساس هو الذي جعل الفئة الفقيرة المستضعفة تسرع إلى اعتناق هذا الدين الذي يحقق لهم المساواة والاطمئنان النفسي في العبادات والمعاملات وعزة النفس والكرامة الإنسانية، وهو الذي جعل من كان بيدهم المال والقوة وأمر العباد يحاربون هذا الدين بكل ما أوتوا من قوة للحفاظ على مصالحهم وامتيازاتهم في مجتمع استعبدوا فيه الضعاف وساموهم سوء العذاب؛ إن هذه الفئة الجاحدة كانت تؤمن بأن ما جاء به الرسول عليه السلام هو الحق لكنهم رفضوه حفاظاً على مصالحهم المادية، ومكانتهم في المجتمع. وكان في مرحلة الدعوة الإسلامية وبخاصة في المدينة المنورة شعراء اختصوا بنصرة الرسول عليه السلام، للرد على شعراء قريش الذين كانوا يهجون الرسول ويكذبون دعوته ويصدون الناس عنها بخلق الأكاذيب على الرسول عليه السلام، فقالوا إنه شاعر وساحر ومجنون "وقد جاءهم رسول مبین، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون"¹.

والشعراء الذين دافعوا عن الدعوة الإسلامية وناصروا الرسول صلى الله عليه وسلم هم: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، وكلهم من الأنصار الذين عاهدوا الرسول عليه السلام على حمايته ونصرته حتى يظهر الله هذا الدين. ذكر أصحاب الأخبار "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة، وقد تناولته قريش بالهجاء، فقال لعبد الله بن رواحة: رد عني، فذهب في قديمهم وأولهم، فلم يصنع شيئاً، فأمر كعب بن مالك، فذكر الحرب كقوله:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا قدما، ونلحقها إذا لم تلحق

فلم يصنع في الهجاء شيئاً، فدعا حسان بن ثابت، فقال: اهجهم، وأت أبا بكر يخبرك— أي بمعائب القوم— وكان أبو بكر علامة القوم"².

وبرغم أن حسان بن ثابت، رضي الله عنه، هو الذي برز في غرض الهجاء خاصة فإن هؤلاء الشعراء كلهم دافعوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وبينوا محاسن هذه الدعوة التي وحدتهم، ودحضوا أكاذيب المشركين التي كانوا ينشرونها بين القبائل، فذكروا أخلاق رسولهم

¹ - سورة الدخان: 12-13.

² - طبقات فحول الشعراء: 217/1. لمحمد بن سلام الجمحي. تحقيق: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. القاهرة.

عليه السلام وسيرته العطرة بينهم وصبره وجهاده وعدله وتقواه ومحبته للخير والإحسان ولكل الفضائل التي كان يتسابق إليها خيار القوم، لقد كانت تلك الخصال الحميدة مجتمعة فيه عليه السلام بدون مبالغة وتكلف أو تصنع وتزويد، وإنما جعل الله رسوله بهذه الصفات ليكون قدوة لأمتة في كل ما دعاهم لما يحييهم ويجعلهم أعز الناس، وأفضل الناس، قال حسان بن ثابت:

فينا الرسول وفينا الحق نتبعه
حتى الممات ونصر غير محدود
واف وماض شهاب يستضاء به
بدر أنار على كل الأماجد¹

ومن أشعار كعب بن مالك في نصرة الرسول عليه السلام وذكر فضائله:

شهدنا بأن الله لا رب غيره
وأن رسول الله بالحق ظاهر
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا
وكان يلاقي الحين من هو فاجر²

وقوله:

لأننا عبدنا الله لم نرج غيره
رجاء الجنان إذ آتانا زعيمها
نبي له في قومه إرث عزة
وأعراق صدق هذبتها أرومتها³

ومن أشعار عبد الله بن رواحة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم قوله:

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات، أن ما قال واقع⁴

وقوله:

أنت الرسول فمن يحرم نوافله
والوجه منه، فقد أزرى به القدر⁵

¹ - السيرة: 21/3.

² - المصدر نفسه: 15/3.

³ - المصدر نفسه: 26/3. الأروم: جمع الأرومة وهي الأصل.

⁴ - ديوانه: 96. دراسة وتحقيق د. حسن محمد باجودة. دار التراث. القاهرة.

⁵ - السيرة: 16/4. النوافل: العطايا والمواهب. وأزرى به القدر: قصر به وقد نشرت دراسة عن هذا الصحابي الجليل في مجلة "المنهل" التي تصدر بجدة. عدد 126. شعبان 1432هـ. يوليو 2011م، بعنوان "شاعر الدعوة الإسلامية- والمجاهد في سبيل الله، الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي".

وحتى الذين لم ينعموا بالإسلام لتشبهتهم بما ألفوه في جاهليتهم مدحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعاني الجليلة الفاضلة التي عرفوه بها، فهذا أعشى قيس نظم قصيدة في هذا الغرض، وقصد رسول الله عليه السلام ليعلن إسلامه بين يديه ويمدحه بها، لكن أحد المشركين اعترض طريقه وقال له: إنه يحرم الخمر- وكان أعشى مولعا بها- فقال أعشى: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات، ولكني منصرف فأرتوي منها عامي هذا ثم آتية فأسلم، فانصرف فمات في عامه ذاك. ومن الأبيات التي مدح بها رسول الله عليه السلام قوله:

وآليت لا آوي لها من كلاله	ولا من حفى حتى تلاقي محمدا
متى ما تتاخي عند باب هاشم	تراحي وتلقي من فواضله ندى
نبيا يرى ما لا ترون وذكره	أغار لعمرى في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل	وليس عطاء اليوم مانعه غدا
أجدك لم تسع وصاة محمد	نبي الإله حيث أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى	ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله	فترصد للأمر الذي كان أرصدا
فإياك والميتات لا تقرينها	ولا تأخذن سهما جديدا لتقصدا
وذا النصب المنسوب لا تتسكنه	ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
ولا تقربن حرة كان سرها	عليك حراما فانكحن أو تأبدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنه	لعاقبة ولا الأسير المقيدا
وسبح على حين العشيات والضحى	ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولا تسخرن من بائس ذي ضراوة	ولا تحسبن المال للمرء مغلدا ¹

هذه المعاني التي ذكرها أعشى- وهو لم يسلم بعد- تدل دلالة قوية على أن المشركين كانوا يدركون أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وفضائل هذا الدين لكنهم حاربوه لأجل الحفاظ على مصالحهم مثل ما أثر الأعشى الخمر على الإسلام حتى يشبع منها في تلك السنة، فلم ينعم بنعمة الإسلام الذي ذكر الكثير من فضائله في هذه الأبيات.

¹ - السيرة: 27/2 - 28.

وأما الذين ظلوا يهجون الرسول عليه السلام ويؤذونه فبمجرد أن هداهم الله للإسلام بدأوا يذكرون فضائله التي كانوا لا يجهرون بها خوفاً من الناس أو إصراراً على التشبث بالكفر حتى تبين لهم الحق والصواب مثل كعب بن زهير الذي مدح الرسول عليه السلام بقصيدة تعد من أروع قصائد المدح في الأدب العربي، مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

يقول فيها:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
في عصابة من قريش قال قائلهم بيطن مكة لما أسلموا زولوا¹

وكان أبو سفيان بن الحارث قد حارب الرسول عليه السلام زمناً طويلاً في جاهليته في مكة والمدينة، وحينما أسلم أبدى ندمه الشديد عن كل ما صدر منه - وإن كان بعض المؤرخين قد اعتبروا إسلام هذه الفئة التي حاربت الرسول عليه السلام قبل الفتح كان نتيجة الخوف بعدما انتصر عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهم أبو سفيان بن الحارث - لكن هذا الرأي لا يحجب حقيقة لا ينكرها أي دارس لتاريخ الإسلام وهي أن هؤلاء الطلقاء الذين عفا عنهم الرسول بعد الفتح قدّموا أعمالاً جليلاً للإسلام، فكان العفو عنهم يمثل قمة التسامح في الإسلام وبعد نظر الرسول عليه السلام لما يعين على استقرار المجتمع الإسلامي. قال أبو سفيان بعد إسلامه:

لعمرك إنى يوم أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدى وأهتدي²

ومثل الشاعرين كعب بن زهير وأبي سفيان نجد عبد الله بن الزبيري الذي كان شديد العداء للإسلام والمسلمين قبل إسلامه، لكنه بعدما أسلم ندم عن كل ما صدر منه، وقال يعتذر للرسول عليه السلام:

يا رسول المليك إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور
إن أباري الشيطان في سنن ال غي ومن مال ميله مثبور
آمن اللحم والعظم لربي ثم قلبي الشهيد أنت النذير³

¹ - السيرة: 155/4 - 156.

² - المصدر السابق: 43/4. المدلج: الذي يسير بالليل لا يهتدي للطريق.

³ - المصدر السابق: 61/4.

ومثلما مدح هؤلاء الشعراء الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته بهذه المعاني التي تدل على الصدق والإعجاب بكل ما كانوا يرون في سيرته عليه السلام وهو بينهم رثوه بعد وفاته بمثل هذه المعاني التي تبلغ الذروة في الحزن والألم على فقدهم رسولا أنقذهم من الشرك والضلال، وإنسانا كان فاضلا شهما كريما محبا لكل مكارم الخير، لقد هداهم إلى الحق واليقين، ووحد صفوفهم، وجعلهم أفضل الناس عبادة وسلوكا وأخلاقا، فحق لهم أن يبكو على فقدهم لرسولهم الذي رسم لهم الطريق الآمن من الزلل والعثرات، قال لهم صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: "فإني قد بلغت، وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا، كتاب الله وسنة نبيه"¹.

ومن أشعار رثائه عليه السلام التي أظهر فيها الشعراء - وهم صادقون - الحسرة والألم على فقدهم لرسول أمين كريم عطوف مجاهد صادق نبيل الخلق والشمائل، هداهم إلى الرشد واليقين والتأزر والوحدة حتى أصبحوا خير أمة أخرجت للناس دينا وسلوكا وأخلاقا، قول حسان بن ثابت، رضي الله عنه، من قصيدة، مطلعها:

بطيبة رسم للرسول ومعهده منير، وقد تغفو الرسوم وتهمد

يقول فيها:

يدل على الرحمن من يقتدي به	وينقذ من هول الخزايا ويرشد
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا	معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفو عن الزلات يقبل عذرهم	وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله	فمن عنده تيسير ما يتشدد
فبينما هم في نعمة الله بينهم	دليل به نهج الطريقة يقصد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى	حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يثني جناحه	إلى كنف يحنو عليهم ويمهد ²

¹ - المصدر السابق: 251/4.

² - السيرة: 317/4 - 318.

وليس غريبا أن يظل المسلمون في جميع العصور يمدحون هذا الرسول الصادق الأمين الذي حمل لهم الرسالة الهادية لكل خير ولتسعدهم في الدنيا والآخرة إذا تمسكوا بتعاليمها ونهجوا النهج الذي سلكه رسولهم في العبادة والمعاملات والصبر والجهد لإثبات الحق ونصرة المظلومين. لكن بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه بدأت رؤوس الفتنة تطل عند المنافقين وضعاف الإيمان، وشعر المسلمون بفقد من جمعهم ووحد صفوفهم وسلك بهم مسلك النجاة، قال ابن إسحاق يذكر حال المسلمين في هذه المرحلة فيما ذكرته عائشة، رضي الله عنها: "لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب، واشترأت اليهودية والنصرانية، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم، حتى جمعهم الله بأبي بكر"¹.

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الرجل القوي بإيمانه الذي استطاع أن يعيد للمسلمين وحدتهم وأمنهم في هذا الظرف العصيب من حياة المسلمين.

ومن أشهر القصائد التي تردت على ألسنة الناس في المناسبات الدينية وغير الدينية في العصور المتأخرة، وما زال لها هذا التأثير القوي في المرحلة الراهنة وبخاصة في المغرب قصيدة البوصيري² التي نالت شهرة كبيرة في المشرق والغرب الإسلامي. وهي مثل سائر قصائد المدح النبوي عدد فيها الشاعر أخلاق الرسول عليه السلام وحسن عبادته وطاعته لله وجهاده وصبره وتقواه حتى أدى رسالته وانتقل إلى جوار ربه راضيا مرضيا. وقد التزم الشاعر في هذه القصيدة منهج القصيدة القديمة من حيث تعدد الأغراض، فذكر فيها الغزل والأطلال والحكم، مطلعها:

مولاي صل وسلم دائما أبدا على حبيبك خير الخلق كلهم

ومن أبياتها قوله:

ولا أرقت لذكر البان والعلم	لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل
والفريقين من عرب ومن عجم	محمد سيد الكونين والثقلين
مستمسكون بحبل غير منفصم	دعا إلى الله فالمستمسكون به
ولم يدانوه في علم وكرم	فاق النبيين في خلق وخلق
غرفا من البحر أو رشفا من الديم	وكلهم من رسول الله ملتمس

¹ - السيرة.

² - هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين أبو عبد الله. وأصله من المغرب من قبيلة صنهاجة وهي من أشهر قبائل المغرب، توفي سنة 695 هـ.

كما نالت قصيدته عناية كبيرة من الباحثين بالشرح والدراسة والتحليل، ومن هذه

الشروح:

أولاً: النفحات الشاذلية في شرح البردة البوصيرية. لحسن العدوي الحمزاوي الشاذلي. وهو كتاب في التصوف.

ثانياً: شروح البردة في العدوتين خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الهجريين. لسعيد الأحرش.
إن ما قدمته أعلاه من وحي ذكرى المولد النبوي الشريف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

الاحتفال بعيد المولد النبوي عند المغاربة: التاريخ والمقاصد

د. منير روكي.

في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، أشرقت الأرض بنور ربها؛ بولادة سيد البشرية جمعاء محمد صلى الله عليه وسلم، فمولده مناسبة دينية يحتفل بها المسلمون، كلٌّ منهم على طريقته ونهجه؛ ليحضر هذا اليوم في وجدان كل مسلم، ويبقى ذكرى عطرة على قلوب المسلمين أجمعين بولادة نبي الأمة. نبي أخرج أمته من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الله، فكانت ولادته نعمةً عظيمةً أرسلها الله لعباده؛ لينشر النور بدلًا من الظلام، والعدل بعد الظلم، ففي هذه الذكرى الخالدة، لا بد من الوقوف على العبر والمواعظ.

نسعى من خلال هذه المداخلة الوجيزة أن نقرب من موضوع يحتاج إلى أعمال علمية كبيرة وموسعة، ويقتضي دراسات تتقاطعها تخصصات التاريخ والفقه والتصوف والأدب والموسيقى والأنثروبولوجيا وغيرها، كما تستعجل قبل هذا وذاك، إخراج جم من المخطوطات والوثائق المنسية أو المهملة، والعمل على تحقيقها تحقيقاً علمياً ثم نشرها وإذاعتها بين الناس.

يتعلق الأمر بموضوع الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ومقاصده السامية عند المغاربة، لكن قبل ذلك نرى من الضروري الوقوف عند الأبعاد التاريخية ومسار الاحتفال بخير البرية عند المغاربة، فمن المعلوم أن الاحتفال بالمولد النبوي الكريم كان قد ظهر وانتعش رسمياً منذ عهد الفاطميين بمصر وتونس حيث كانوا يحتفلون به ضمن احتفالهم بستة مواليد، وهي مولد الرسول الأعظم، صلى الله عليه وسلم، ومواليد آل البيت، عليهم السلام، علي ابن أبي طالب والحسن والحسين وفاطمة الزهراء؛ ومولد الخليفة الحاضر. وإذا كان بعض الباحثين يعين القرنين السادس والسابع الهجريين باعتبارهما تاريخ ظهور الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف، فإن غيرهم يؤكد أن العباسيين احتفلوا به طوال مختلف عهودهم وأن العلويين والشيعية عامة قد احتفلوا به حتى قبل قيام الدولة العباسية، أما في المغرب، فقد كان أول من دعا إلى الاحتفال بعيد المولد النبوي الكريم أبو العباس السبتي المتوفى سنة (633هـ/1236م)، ويذكر في مقدمة الكتاب الذي بدأ تأليفه "الدر المنظم في مولد النبي المعظم" الحافز الذي حدا به إلى الدعوة لهذا الاحتفال؛ ذلك أن أبا العباس

ذ. منيروكي.

العز في لاحظ متابعة المسلمين ومجاراتهم للنصارى في احتفالهم بأعياد "النيروز" و"المهرجان" و"ميلاد السيد المسيح عليه السلام"، فدفعته غيرته على الإسلام والمسلمين في الأندلس وخوفه على هويتهم ودينهم إلى أن يفكر في ما يدفع هذه المناكر ولو بأمر مباح.

امتد الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب على عهد المرينيين إلى أن أصبح عيداً رسمياً معمماً في جميع جهات المغرب مع يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني أواخر صفر عام (691هـ/1292م). وفي أيام أبي سعيد الأول بن يوسف أضيف إلى ليلة المولد الاحتفال بسابعه، وفي أيام هذا السلطان تبنت الدولة القيام بنفقات الاحتفال بليلة المولد في سائر جهات المملكة. وقد اتخذت هذه الاحتفالات طابعها الاحتفائي الباذخ والبهى مع أبي الحسن وأبنائه، حيث دأب أبو الحسن المريني على إحياء ليلة المولد سفراً وحضراً؛ إذ يقتني لها ألوان المطاعم والحلويات والبخور والطيب؛ مع إظهار مظاهر الزينة والتأنق في إعداد المجالس كل حسب مرتبته وطبقته، وكانت تواكب هذه الاحتفالات الرسمية احتفالات أخرى شعبية، حيث تُقام الأفراح وتستتير المدن بالأضواء، ويتجمل الناس وتزين المدن. وصار يوم الثاني عشر من ربيع الأول يوم دخول الصبيان بفاس للكتاتيب القرآنية، ومناسبة لختان الأطفال. كما دأب الصوفية على الاحتفال بهذا العيد بزواياهم أو بالبيوتات الخاصة؛ وقد ازدهرت هذه الاحتفالات مع السعديين، وتعييننا في عهد المنصور كما وصف ذلك بإسهاب عبد العزيز الفشتالي في "مناهل الصفا"، لتتطور بعد ذلك هذه التقاليد في عهد الدولة العلوية. وقد عرض لنموذج من ذلك المؤرخ مولاي عبد الرحمن بن زيدان في كتابه "العز والصولة"، وهو الاحتفال الذي مازلنا نعيش فصولاً رائعة منه في زماننا الحاضر.

انعكست آثار الاحتفال بالمولد النبوي الشريف عند المغاربة على الحياة الفكرية والأدبية خاصة؛ ذلك أن هذا الاحتفال أفرز أدباً جديداً عُرف بـ "الموالد النبوية" أو "المولديات"؛ وهي القصائد التي كانت تُنظم خصيصاً لكي تُشدد في هذه المناسبة، وقد ظهرت منذ أوائل المائة السابعة للهجرة، كما يدل على ذلك كلام العلامة المنوني - رحمه الله - قال: "من المعروف أن احتفال المغرب بالمولد النبوي، يبتدئ من أوائل المائة السابعة للهجرة، وقد كان من بين أصداء هذا الاحتفال، ابتداء موضوعات جديدة في الأدب المغربي: من مؤلفات في المولد الشريف، إلى قصائد التهاني المولدية، وهذه تفتتح - غالباً - بالحنين إلى البقاع المقدسة، وتتناول مدح الجناح النبوي وتعداد معجزاته، ثم تتخلص إلى مدح السلطان مقيم الاحتفال وتهنئته، وإلى جانب هذا ظهرت قصائد تعرف باسم: المولديات.

ذ. منير روكي.

سرعان ما ازدهر هذا الفن ازدهارا كبيرا على العهد المريني، ثم الوطاسي من بعده؛ حيث أصبح الملوك أنفسهم يرأسون المهرجانات التي تقام ليلة المولد النبوي، وقد أصدر السلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني (691هـ)، قرارا بجعل المولد عيدا رسميا معمما في جميع جهات المغرب كعيدي الفطر والأضحى، وأصبح ملوك الأندلس يحتفلون في الصنيع والدعوة وإنشاد الشعر اقتداءً بملوك المغرب.

كان لتنافس شعراء هذه الفترة فيما بينهم أثر بالغ على الحركة الأدبية؛ حيث شهدت نشاطا كبيرا في هذا الميدان، وكان من أشهر هؤلاء عبد العزيز الفشتالي، الذي علت رتبته عند المنصور. قال صاحب سلافة العصر في حقه: "كاتب المنصور وريب تلك الدولة المشيدة القصور، وخادم بناها الممدود والمقصور، المعترف لسان البراعة عن حصر مناقبه بالقصور، فاضل زهت به الأقلام والأعلام، وأقرت بفضلها العلماء الأعلام، وخضعت لأدبه سماسرة الكلام، وأضاءت بأنوار بلاغته حنادس الظلام، فهو إذا نثر أفحم الورقاء ذات السجع، وإذا نظم أخجلت أفكاره دراري السماء ذات الرجع، فجاء بما شاء وكيف شاء من محاسن الأشعار والإنشاء". وكان المنصور نفسه معجبا بأدبه وتفوقه في النثر والشعر حتى قال فيه: "تفتخر به على ملوك الأرض ونباري لسان الدين ابن الخطيب".

على أن امتداد هذا الاحتفال على مدى قرون يجعلنا نتساءل: ما هي المقاصد والغايات التي جعلت المغاربة يتمسكون بهذه "البدعة الحسنة" ويتفننون في الاحتفاء بها وإحيائها؟

➤ الفرح بمولده صلى الله عليه وسلم وتحقيق قيمة المحبة:

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، هو إظهار الفرح بالنبي الكريم، بما هو مشروع من العبادات والطاعات، وقد أمر الله تعالى أن نفرح بفضلله ورحمته على هذه الأمة حيث قال: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا"¹، وليس هناك أعظم من نعمة الإرسال بالهداية والرحمة، التي من الله بها على هذا الوجود في شخص نبينا محمد.

فقد هتف صالحوا الأمة بيوم مولده عليه السلام، ولهجت أرواحهم بالعشق المحمدي، واهتزت أشواقهم بنسمات قربه عليه السلام، فدعوا الأمة إلى مشاركتهم في هذا الهيام، حتى ينتفع المسلمون بنفحات هذا الاتصال، وأنوار هذه المحبة، وتجليات هذا القرب.

ذ. منير روكي.

فكانت مجالسهم مجالس مدح وتعظيم للنبي المختار، من خلال قصائد وأناشيد نبوية، وهي معان ذوقية وحكم سامية، أورها الالتزام الصادق بأحوال المصطفى عليه السلام، والارتباط الأكمل بالمنهج النبوي في جميع الأفعال، وكل ذلك مُضمن في مدائحهم وأشعارهم، إنهاضاً للهمم نحو المسارعة لأخذ السلوك، وشد الرحال لمنازل المحبة النبوية، والتحقق بالكمالات الخلقية.

إن الاهتمام بهذه المناسبة مدخل للتعرف والتعريف برسول الله صلى الله عليه وسلم في وقت انشغل الناس بأحداث ومشاكل كثيرة صرفتهم عن معرفة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو ما يفرض تحيين الفرص والمناسبات للتعريف بالنبي عليه الصلاة والسلام والتذكير به وبسيرته، حتى يبقى حيا في قلوب الناس ومشاعرهم، ويتحقق مقصد المحبة له عليه الصلاة والسلام، خاصة وأن محبته من أصول الإسلام، إذ لا يكتمل إيمان المرء إلا بمحبته، لقوله صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"¹.

ومن مقتضيات المحبة تعظيمه صلى الله عليه وسلم، والاحتفال مدخل ووسيلة لتحقيق ذلك، وقد أكد ابن تيمية هذا المقصد في اقتضاء الصراط المستقيم حيث قال: "فتعظيم المولد قد يفعله بعض الناس ويكون لهم فيه أجر عظيم، لحسن قصدهم وتعظيمهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم".

كما أن الاحتفال بالمولد الشريف، هي لحظة لإظهار صورة الإسلام السامية، كطريق للاهتمام بما يستقيم مع الفطرة السليمة، وما يقتضيه الاعتقاد الصحيح، والمعاملة الصالحة، إنه جمال الروح في أبهى حلتها، ومنار للسلوك في أعظم تجلياته، كل ذلك في انسجام وتكامل ظاهر العبد وباطنه، خصوصا ما تعرفه الشريعة المحمدية من استهداف لأحد أركان عقائد الأمة، وهو النبي من خلال تشويه صورته، وإضعاف لتعلق المسلمين بمحبته، لما يعلمون يقينا، أن سر قوة المسلمين هو صدق محبتهم، وتشبثهم بنبيهم عليه الصلاة والسلام.

ويؤكد مقصد الفرح بمولده صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا"². فقد جاء في «الدر المنثور» للإمام السيوطي وفي غيره منقولاً عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قوله: "فضل الله العلم ورحمته محمد" ويثبت هذه الصفة له صلى الله عليه وسلم

¹ - رواه البخاري ومسلم.

² - يونس: 58.

قوله تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"¹، وقوله صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة"²، وقوله صلى الله عليه وسلم أنا نبي الرحمة "³.

بل كان الفرح بمولده سببا في تخفيف العذاب عن أبي لهب كما جاء في فتح الباري فيما ذكر السهيلي أن العباس قال: "لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حول في شر حال فقال: ما لقيت بعدكم راحة، إلا العذاب، يخفف عني كل يوم إثنين، قال: وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين، وكانت ثوبية بشرت أبا لهب بمولده فأعتقها".

مما يزكي مشروعية هذا الفرح ما يُروى عن أبي لهب أن العباس بن عبد المطلب رآه بعد مماته في المنام فسأله عن حاله، فقال له: "في النار، إلا أنه يخفف عني كل ليلة إثنين بإعتاقي ثوبية الأسلمية، [جاريته] عندما بشرتني بولادة النبي صلى الله عليه وسلم"، فإذا كان هذا حال الكافر الذي لا تتفعه طاعة أو خير مع كفره، حيث يخفف عنه العذاب فقط إكراما له لفرحه بولادة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فما بال المسلم المؤمن الذي لا يكمل إيمانه حتى يكون المصطفى أحب إليه من نفسه وولده والناس أجمعين. ذاك هو المعنى الذي ضمنه الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدين الدمشقي في هذه الأبيات البديعة لما قال:

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه	يثبت يده في الجحيم مُخلدا
أتى أنه في يوم الاثنين دائما	يُخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذي كان عمره	بأحمد مسرورا وبات موحدا

ولعل هذا الفرح هو الذي جعل المحبين للمصطفى يتخذون من يوم مولده عيدا عظيما يضارع عيدي الفطر والأضحى في الفرح والسرور، ويزيد عليهما بامتداد السرور بحب المصطفى في الزمن وعدم انحصاره بوقت دون آخر؛ إذ كل وقت للمحبين بذكر الهاشمي عرس. يقول الشاعر:

المسلمون ثلاثة أعيادهم	الفطر والأضحى وعيد المولد
فإذا انقضت أفراحهم فسرورهم	لا ينقضي أبدا بحب محمد

¹ - الأنبياء: 106.

² - أخرجه الحاكم في المستدرک.

³ - مسلم.

➤ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

أكد علماء الأمة، على أن موته الجسدي عليه السلام، لا يغير شيئاً مما يلزم من الأدب معه في حياته، فقد ناظر أبو جعفر المنصور مالكا في مسجد النبي، فرفع أبو جعفر صوته، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، إن الله تعالى أدب أقواما فقال: "لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي"¹.

وذمّ قوما فقال: "إن الذين ينادونك"²، وإن حرمة ميتا كحرمة حيا، فاستكان لها أبو جعفر، وقال له أبو جعفر، أدعو مستقبل القبلة أم مستقبل رسول الله؟ فقال مالك: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به إلى ربك يشفع لك، قال تعالى: "ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك"³.

ولذلك فإن إحياء المولد الشريف ما هو إلا تجديد لأواصر المحبة والتعظيم اللازمين في حق المصطفى، وهي الرؤية التي لا ينبغي أن تغيب عن شعور المؤمن في أي يوم من أيام السنة، ومن قال بغير ذلك فهو لا محالة واقع في محاذير شرعية، فكيف يستتكر الاحتفاء به، ونحن لم نزد على أن أظهرنا ما نحن ملزمون به في سائر الأيام.

وتعيين يوم ولادته عليه السلام، هو لإشعار التعلق الواجب في حق النبي، وهي وقفة للذكرى، وأخذ العبرة والموعظة فيما يمكن أن يدفع بهمة المؤمن نحو التسنن الأقوم، خصوصا إذا التمس المحب ذلك في يوم ولادته عليه السلام، لأن شكر النعمة في تاريخ حدوثها، وفي يوم حدوثها، هو أنسب الأوقات بذلك، فندب رسول الله إلى صيام العاشر من محرم لنجاة موسى فيه، رغم أن نجاته يتكرر حدوثها، وقد لا يوافق يوم العاشر من محرم، وكذلك ندب رسول الله صوم يوم الاثنين من كل أسبوع معللا ذلك "بأنه يوم ولد فيه"، رغم أن الولادة لم تتكرر في كل يوم إثنين، وقد لا يصادف يوم الاثنين تاريخ الولادة.

وهذا التصرف من رسول الله يبرز أن شكر النعمة في تاريخ حدوثها من كل سنة، وفي يوم حدوثها في كل أسبوع أنسب وأولى، سواء تكررت النعمة في ذلك التاريخ أم لم تتكرر، وحيث كان مولده نعمة تستحق الشكر والابتهاج، وتذكر المنّة التي من الله بها على الأمة، فلا بدع أن

¹ - الحجرات: 2.

² - الحجرات: 4.

³ - النساء: 63.

⁴ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك إلى مذهب مالك، 246.

د. منير روكي

يكون تاريخ هذه النعمة، وهو ليلة الثاني عشر من ربيع الأول، أنسب الأوقات لاتخاذ مناسبة مولده سبيلا إلى جلاء صدا القلوب، بتذكير النفوس بهذه النعمة الكبرى، وإيقاظا للعبرة فيها.

المقصد الآخر الذي يتحقق من الاحتفال بالمولد النبوي الكريم، هو إبراز مزايا وفضائل الصلاة على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والإكثار منها؛ إذ يعد هذا الاحتفال مناسبة متميزة للإبحار في الصلاة على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والنهل من أنوارها والاعتباس من أسرارها وغنى عن البيان فضل الصلاة على الرسول الأكرم، وما ورد فيها من حض وندب وترغيب في القرآن والسنة الشريفة، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾¹، وورد عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه شوهده وقد أطل السجود، فلما سئل قال: "هذه سجدة سجدتها شكرا لربي فيما آتاني في أمتي، من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا"، بل إنه، صلى الله عليه وسلم، وصف المعرض عن الصلاة عليه بالبخل، لما قال عليه السلام: "البخل من ذكرت عنده فلم يصل علي"، كما أن الصلاة عليه توجب شفاعته، صلى الله عليه وسلم، لقوله: "من صلى علي أو سأل لي الوسيلة، حقت عليه شفاعتي يوم القيامة". والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، واجبة على المؤمن في سائر الأوقات، لكنها تصبح أكثر حضورا أو ظهورا وانتعاشا في مناسبة المولد النبوي الشريف، لأنها تعد مجلى من مجالي الفرح برسول الله صلى الله عليه وسلم.

➤ الفرح برسالة الإسلام والتذكير بقيمتها وأحكامها:

إن تحين الفرص للتذكير بالنبي صلى الله عليه وسلم، ليس مقصودا في حد ذاته بل لما يمثله النبي عليه الصلاة والسلام، فهو رسول صاحب رسالة سماوية تتضمن قيما وأحكاما وقواعد ومنهجاً يوجه الإنسان للسير على هدي الله، والاستقامة على طريقه، رسالة هي مصدر السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة، ومصدر الهداية من ضلال الشقاء في الدنيا والآخرة، فكانت بذلك مصدر الفرح والسرور، فهي كما قال الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه إعلام الموقعين: "الشرعية مبناه وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها"، ومن كانت كذلك فالفرح بها واجب، وبمن كان سببا في وصولها إلينا مطلوب.

¹ - الأحزاب: 56.

➤ تربية النشأ على محبة النبي صلى الله عليه وسلم:

جاء عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أنه قال: "كنا نعلم أبناءنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلمهم السور من القرآن"، فإذا أردنا تربية الأبناء على حب رسول الله مطلوب تعريفهم بسيرته صلى الله عليه وسلم، واستغلال الفرص لتذكيرهم بهذه السيرة العطرة، وما تتضمنه من قيم وأحكام وأخلاق راقية، ومنهج في العيش والتعامل مع الناس والحيوان والجماد، ولعل الأطفال يفرحون ويبحثون عن المناسبات التي تسعدهم وتكون محطة للفرح واللعب، وهي مناسبة لربطهم بسيرته عليه الصلاة والسلام وتعريفهم به صلى الله عليه وسلم، وبكمال خلقه ورحمته وصبره وعطاءه للدعوة، وحبه لأمته وخوفه عليها.

➤ التعبير عن محبة الرسول الأكرم وتثبيتها في القلوب

المقصد الخامس الذي نقف عنده والمطلوب من الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف هو التعبير عن محبته والعمل على تثبيتها من الأئمة وترسيخها في القلوب، وذلك أن هذه المحبة شرط في الإيمان فقد ورد في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"، بل حتى يكون المحبوب المصطفى، عليه السلام، أحب للمؤمن من نفسه؛ فعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي، فقال له صلى الله عليه وسلم: لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: الآن يا عمر". وإشاعة محبة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وتثبيتها وترسيخها هو ترسيخ لمختلف مناحي الدعوة المحمدية وقيمها ومثلها وأخلاقها وفضائلها؛ لأن من أبرز علامات المحبة طاعة المحبوب إذ المحب لمن يحب مطيع، مما يجعل من مقتضيات محبة المصطفى، صلى الله عليه وسلم، اتباعه والتمسك بسنته والتخلق بأخلاقه وسلوك نهجه والذود عن حرمة والتحقق بمبادئ دعوته وقيم رسالته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾¹.

¹ - آل عمران: 31.

➤ ترسيخ الشخصية الإسلامية المغربية وتحصين هويتها الدينية

هذا المقصد هو نتيجة تترتب عن المقصد الأنف، فالتعلق بالرسول الكريم، والتحقق بمحبته يقتضي التمسك بسنته كما سلف، وهو ما يعني مساهمة الاحتفال بعيد مولده في تقوية وتغذية الهوية الإسلامية المغربية، وترسيخ التخلق بأخلاق الرسول الكريم، عبر استحضار سيرته ومكارمه وكمالاته ومعجزاته وأصول رسالته ومقاصد دعوته، ويكفي التذكير ببعض عادات المغاربة في مثل هذه المناسبة مثل سرد كتاب "الشفاء" للقاضي عياض وإنشاد نصوص البردة والهمزية البوصيريتين ووتريات الإمام البغدادي خلال الأحد عشر يوما من ربيع الأول، وكلها مدائح تتضمن أخلاقا نبوية وسيرة مصطفوية منظومة تُستحضر في شكل تنغيمي محبوب ومحبيب في السنة النبوية الشريفة وفي التعلق والتخلق بها.

ومما يدعم دور هذا الاحتفال في ترسيخ وتغذية الشخصية الإسلامية المغربية ما سبقت الإشارة إليه من كون انطلاق عادة هذا الاحتفال كانت بغاية المحافظة على الهوية الإسلامية لأهل سبتة والأندلس وصرفهم عن التقليد الديني للنصارى. وذلك ما يسوغ هذا المقصد في سياقنا الحضاري والتاريخي والذي تهدد فيه العولة الثقافية كل الهويات الفقيرة بالمحو والتذويب.

هذه فقط نماذج من المقاصد والغايات المطلوبة من الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، والتي تعلق جزئيا إقبال المغاربة على هذا الاحتفال وعنايتهم به رسميا وشعبيا، هذا الإقبال الذي أنتج تراثا من النصوص المولدية شعرية ونثرية؛ وذخيرة من الطرائق الإنشادية والأعراف الاحتفالية والمظاهر الإبداعية المسموعة والمرئية. إقبال يقتضي من يؤرخ له وينصت إلى أسرار الأدبية والطربية والأنثروبولوجية الخاصة. هكذا يصبح ما ورد في هذا الحديث الوجيز والمختصر عن احتفال أهل المغرب بالمولد الشريف مجرد إضاءات تنغيي التذكير بقيمة حدث استثنائي ترك إمضاء متوهجا واستثنائيا في تاريخ ووجدان المغاربة؛ نقط تستلزم التوسيع والتعميق على أكثر من مستوى.

المقالات الداعمة

ملاح من المنهج النبوي في التعامل مع أهل الكتاب

ذ. محمد الدرداري

باحث، المضيق - تطوان.

ينظر الإسلام إلى أهل الكتاب نظرة خاصة، تختلف في جوهرها عن باقي أتباع الديانات الأرضية الأخرى، أو الذين لا دين لهم، سواء أكانوا في بلاد المسلمين أم خارجها؛ لذلك وجدنا القرآن يتلطف بهم، ويتفرق في مخاطبتهم، فلا يناديهم إلا بـ: "يا أهل الكتاب" أو "يا أيها الذين أوتوا الكتاب" ويصفهم بـ: "الذين آتيناهم الكتاب"، وهي إشارات منه إلى أنهم ينتسبون في الأصل إلى دين سماوي، وقد أباح الإسلام لأجل ذلك مؤاكلتهم ومصاهرتهم والتزوج من نسائهم، كما أباح لنا تناول ذبائهم وأكل طعامهم، واعتبر ذلك حلالاً طيباً، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَحْلَلْ لَكُمْ الصَّيِّئَاتِ وَهَعَامَ الْكَيْنِ أَوْثُوا الْكِتَابَ حَلْ لَكُمْ وَهَعَامَكُمْ حَلْ لَكُمْ وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْكَيْنِ أَوْثُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ¹﴾.

إن الإسلام يشترك مع غيره من الشرائع السماوية الأخرى في الأصل والمنشأ، وفي الوجهة والغاية، فبينه وبينها صلة تتمثل في وحدة العقيدة التي بُعث بها الأنبياء لإقامة الدين، ونبي التفرقة والاختلاف فيه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ²﴾.

ويظهر هذا الأصل أيضاً في دعوة الإسلام إلى الإيمان بكل الأنبياء والرسل، وجميع الكتب المنزلة عليهم، فلا يتحقق الإيمان ولا يوجد إلا بهذا، وأي تفرقة في ذلك ينتقض الإيمان من أصله، ويصير إلى ترف. قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفَرَّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَتَحْزَنْ لَهُ مُسْلِمُونَ³﴾.

ومن المعلوم أن الاحتكاك المباشر والمستمر للنبي صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب جاء بعد الهجرة إلى المدينة، ولم يكن يتصل بهم من قبل إلا نادراً، بحيث لا يمكن في ضوء ذلك إدراك

¹ - المائدة: 6.

² - الشورى: 11.

³ - البقرة: 135.

منهجه صلى الله عليه وسلم في التعامل معهم، لكن بمجرد وصوله إلى المدينة، واستقراره بها، شرع في بناء دولته، ووضع أسسها القويمة التي تضمن استقرارها وقوتها وتماسكها، ولم يكن عليه السلام - في ظل بناء الدولة - ليغفل أي مكون من مكونات المجتمع المدني، بل أشرك الجميع مسلمين وغيرهم.

هنا بدأ يظهر التطبيق العملي لمبدأ التعايش مع أهل الكتاب (خاصة اليهود) حيث وضع النبي صلى الله عليه وسلم صحيفة لتنظيم شؤون الناس بطوائفهم المختلفة، وبنظرة في بنود هذه الصحيفة، نقف على نموذج إنساني للتعايش المشترك، يتيح للجميع الحق في الاختلاف الديني والثقافي والعرقي، مع المحافظة على صفة المواطنة التي هي قيمة مشتركة بين الجميع.

لقد نصت وثيقة المدينة على أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، وهذا ليس خاصا بيهود بني عوف فقط، بل يشمل كذلك يهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جُشم، ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة، ويشمل أيضا مواليتهم وبطانتهم، كيهود جفنة وثعلبة وبني الشطيبة.¹

كما نصت الوثيقة على التعددية الدينية، فكل دينه الخاص به، "لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم"². وهذا ما جاء به القرآن الكريم، وأكد عليه في الكثير من آياته منها: قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾³، وقوله أيضا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَالصَّابِينَ وَالنَّصَارَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ فَصِيدٌ﴾⁴.

لقد ذكرت آية الحج أعلاه أصحاب الملل والعقائد "من المسلمين (المؤمنين)، واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين جنبا إلى جنب، ثم بينت بأن سلطة الفصل بين أتباع الأديان بيد الله تعالى وحده، وأن هذا الفصل الإلهي بين أتباع الأديان موعده يوم القيامة وليس في هذه الحياة الدنيا، وعلى أتباع الأديان أن يتعايشوا بسلام وتعاون في هذه الحياة الدنيا، وأن يقبلوا

¹ - سيرة ابن هشام تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط/2، 1375هـ. (503/1). عيون الأثر في فنون المغازي والسمائل والسير، ابن سيد الناس، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم (بيروت) ط/1، 1993م (228/1).

² - سيرة ابن هشام (503/1).

³ - الكافرون: 6.

⁴ - الحج: 17.

بعضهم بعضاً، وأن يقرّوا بحق الجميع في الوجود، وليس لأحد منهم سلطة الفصل في شأن عقائد الآخرين¹.

إن العنصر الأول في أي تعايش هو وجود الرغبة المشبعة بقيم التسامح والحرية والكرامة الإنسانية، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في "وثيقة المدينة" ليغفل هذه القيم، بل سطر فيها صوراً رائعة لسماحة الإسلام، تلك الصور كما يقول: عبد العظيم المطعني هي: "المساواة التامة بين اليهود والمسلمين في كل الحقوق والواجبات العامة والخاصة، ليس فيها محاباة ولا مضارة لأحد، اللهم إلا في الدين، فليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، وما عدا ذلك فهم سواء فيه، ومن سماحة الإسلام أن نبدا من بنود المعاهدة دمج دمجا تاما بين اليهود والمسلمين فجعلهم أمة واحدة... وأن البند الثامن جعل يثرب (المدينة) وطنا للجميع، لا فرق بين يهودي ومسلم، كلهم في ذلك سواء"².

وهكذا اعترفت هذه الوثيقة باليهود ككيان مستقل روحيا وعقديا، وأقرت مبدأ التعايش معهم في ظل السيادة الإسلامية على "أساس المواطنة للدولة والالتزام بدستورها وعقدها السياسي، لا على أساس الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم"³.

وقد تضمنت هذه الوثيقة -بالإضافة إلى ما مر- أحكاما تكفل الحريات العقدية والعبادية لليهود، وتبين كيفية تحقيق التعاون معهم، ودفع الأذى والظلم، وصيانة الفضيلة، والاشتراك في رد أي عدوان يستهدف الوطن المشترك.

ومن الغريب أن بعض المغرضين "اجترأوا على التاريخ وزيفوه، وقوّلوه ما لم يقل، واجترأوا على النصوص فحرفوها عن مواضعها، محاولين بهذا وذاك أن يشوهوا التسامح الإسلامي الذي لم تعرف البشرية له نظيرا في معاملة المخالفين في العقيدة والفكر لا في القديم ولا في الحديث"⁴.

ومن صور ذلك زعمهم أن النبي عاهد اليهود حال ضعفه عند مقدمه إلى المدينة، فلما قوي وكثر أتباعه، وصار في منعة، نقض عهده معهم، فأجلاهم وحاربهم.

صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم حارب أقواما من اليهود، لكنه لم يفعل ذلك بهم لأنه تقوى بكثرة الأتباع، وصار للمسلمين شوكة، بل صنيعه معهم كان نتيجة تماديهم في الغدر

¹ - قيم التعايش المشترك ومبادئه في وثيقة المدينة، محمد الشرقاوي، مجلة حراء، مؤسسة قايناق التركية، العدد: 40/السنة التاسعة/ (يناير - فبراير) 2014م.

² - سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ط1، 1414هـ (ص: 132).

³ - الأحكام الشرعية للثورات العربية، علي بن نايف الشحود، ط1، 1432هـ (ص: 376).

⁴ - غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، القرضاوي، مكتبة وهبة، ط3، 1413هـ (ص: 4).

بالمسلمين، وانتهاك حرمتهم، ونقضهم لعهودهم، فكان صلى الله عليه وسلم يعاقب من تهادى منهم في ذلك، لأن فيه تهديد للسلم الاجتماعي الذي نصت وثيقة المدينة على تحقيقه والمحافظة عليه. وقد لا نكون مخطئين إذا قلنا بأن النبي صلى الله عليه وسلم بالغ في تساهله مع هؤلاء، والعفو عن إساءاتهم، إلى درجة جعلت البعض منهم يعتقدون بأن مصدر ذلك هو خوفه منهم، وتهيبه من مجاباتهم، ورد غطرستهم، بل نجد في بعض محادثاتهم معه نبرة التحدي والتهديد، ففي السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى الإسلام بعد غزوة بدر قالوا له: "يا محمد؛ لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش، كانوا أغمارا¹ لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنتك لم تلق مثلنا"².

إننا عندما نعود إلى السنة النبوية— سواء القولية أو العملية— نجد النبي صلى الله عليه وسلم قدم نموذج الكمال البشري في التعامل مع المخالف، وهو بذلك لم يكن يعبر عن موقف شخصي، أو سلوك ذاتي مجرد، بقدر ما كان يعكس تعاليم هذا الدين وروحته في النظرة إلى الآخر والتسامح معه.

ونذكر من صور هذا التسامح، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سحره اليهودي لبيد بن الأعصم لم يعاقبه ولا أمر بذلك؛ فعند الترمذي وأحمد أن زيد بن أرقم قال: "سَحَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَاشْتَكَى لَذَلِكَ أَيَّامًا، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، عَقَدَ لَكَ عَقْدًا فِي بئر كَذَا وَكَذَا، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَخْرَجُوهَا، فَجِئَ بِهَا، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عَقَالٍ، فَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ لِلذَّكَاءِ الْيَهُودِي، وَلَا رَأَى فِي وَجْهِهِ قُطْرًا"³.

وعند مسلم أن امرأة يهودية "آتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِئَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: أُرِدْتُ لِأَقْتُلَكَ، قَالَ: لِمَا كَانَ اللَّهُ يُسَلِّطُكَ عَلَى ذَٰلِكَ؟ قَالُوا: أَلَا نَقْتُلُهَا؟ قَالَ: [لَا]⁴. وفي البخاري إشارة إلى أن ذلك كان بتدبير من أعيان اليهود، وأنهم اعترفوا بذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "لَمَّا قُتِحَتْ خَيْبَرُ، أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاةٌ فِيهَا سَمٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

¹ - الأغمار جمع غمر، بالضم، وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور، أنظر لسان العرب، مادة (غمر) (32/5).

² - سيرة ابن هشام (525/1).

³ - السنن الصغرى للنسائي، حديث رقم: 4080 (112/7). وأحمد في المسند، حديث رقم: 19267 (14/32).

⁴ - صحيح مسلم، كتاب: السلام، باب: السم، حديث رقم: 2190 (1721/4).

د. محمد الدرداري

عليه وسلم: [اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ يَهُودًا فَجَمَعُوا لَهُ، فَقَالَ: لَهْلَ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟]، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: لَهْلَ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟]، قالوا: نعم، قال: لَمَّا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟]، قالوا: أردنا إن كنت كاذبا نستريح، وإن كنت نبيا لم يضررك¹. فما نكل بهم وما أمر فيهم بشيء.

ومن صور هذه السماحة أيضا دعاؤه لهم بالهداية وراحة البال، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: "كان اليهود يتعاطسون عند النبي صلى الله عليه وسلم يرجون أن يقول لهم: يرحمكم الله، فيقول: إِيْهِدِيْكُمْ اللهُ وَيُصْلِحْ بِالْكُمُ"².

ولقد مرت به جنازة يهودي وهو قاعد، فقام من قعدته حتى ولت، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: "مر بنا جنازة، فقام لها النبي صلى الله عليه وسلم وقمنا به، فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي، قال: [إِذَا رَأَيْتُمُ الْجَنَازَةَ، فَقومُوا]³. وفي رواية "أن سهل بن حنيف، وقيس بن سعد كانا قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة، فقاما، فقيل لهما إنها من أهل الأرض، أي من أهل الذمة، فقالا: إن النبي صلى الله عليه وسلم مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: [أَلَيْسَتْ نَفْسًا]⁴."

أما سيرته مع أحيائهم فكانت مبنية على الإنصاف والعدل ورفع الظلم ورد الحقوق حتى لو كان الخصم مسلما، وهذا ما قررته وثيقة المدينة حيث جاء فيها: "وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم"⁵. لذلك لما اختصم الأشعث بن قيس ورجل يهودي إلى رسول الله في ملكية أرض، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشعث: [أَلَيْكَ بَيِّنَةٌ؟]⁶ قال: لا، فحكم بها لليهودي مقابل يمينه.

ولما قُتل عبد الله بن سهل رضي الله عنه بخبير، ولم يكن لأولياء دمه بينة، لم يقض النبي صلى الله عليه وسلم في اليهود بشيء، ولم يحملهم ديته، بل تحملها هو. فعن "سهل بن أبي حثمة،

¹ - صحيح البخاري، كتاب: الجزية، باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين، هل يعفى عنهم، حديث رقم: 3169 (99/4).
² - سنن الترمذي، أبواب: الأدب، باب: ما جاء كيف يشمت العاطس، حديث رقم: 2739 (82/5). وقال حديث حسن صحيح. ومسند أحمد، مسند الكوفيين، حديث أبي موسى الأشعري، حديث رقم: 19586 (356/32).
³ - صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب: من قام لجنازة يهودي، حديث رقم: 1311 (85/2).
⁴ - متفق عليه (البخاري، كتاب: الجنائز، باب: من قام لجنازة يهودي، حديث رقم: 1312 (85/2). ومسلم، كتاب: الجنائز، باب: القيام للجنازة، حديث رقم: 961 (661/2).
⁵ - سيرة ابن هشام (503/1). عيون الأثر (227/1).
⁶ - متفق عليه (البخاري، كتاب: الخصومات، باب: كلام الخصوم بعضهم في بعض، حديث رقم: 2416 (121/3). ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، حديث رقم: 139 (123/1).

قال: انطلق عبد الله بن سهل، ومحبيصة بن مسعود بن زيد، إلى خيبر وهي يومئذ صلح، ففترقا، فأتى محبيصة إلى عبد الله بن سهل وهو يتشمط في دمه قتيلا، فدفنه ثم قدم المدينة، فانطلق عبد الرحمن بن سهل، ومحبيصة، وحوبيصة ابنا مسعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذهب عبد الرحمن يتكلم، فقال: [كَبُرَ كَبْرًا] وهو أحدث القوم، فسكت فتكلما، فقال: [تَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ، أَوْ صَاحِبَكُمْ] قالوا: وكيف نحلف ولم نشهد ولم نره؟ قال: [فَتُبْرِيكُمْ يَهُودُ بَخْمَسِينَ] فقالوا: كيف نأخذ أيمان قوم كفار، فعقله النبي صلى الله عليه وسلم من عنده¹.

ولقد كان بين المسلمين ويهود خيبر صلح، وعلى الرغم من أن القرائن تدل على أن القتل وقع منهم، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعاقبهم ولم يحملهم ديته لعدم وجود البينة القاطعة.

ومثل ذلك نجد تعامله مع النصارى، فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليفرق بينهم وبين اليهود في العدل والحرية والكرامة وسائر الحقوق، بل إن سيرته فيهم ناطقة بأن أهل الكتاب من النصارى كان لهم نصيب من التسامح النبوي، حيث ترك لهم كامل الحرية في ممارسة شعائرتهم، والبقاء على دينهم، ولا أدل على ذلك من نهي النبي صلى الله عليه وسلم رجلا أنصاريًا يقال له الحُصَيْن من إكراه ولديه النصرانيين على الإسلام² وفيه نزل قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾³.

وفي السنة التاسعة للهجرة، بعد مُنصرف المسلمين من تبوك، وفد على المدينة قوم من نصارى نجران، فناظرهم النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد، ولما حان وقت تعبدهم استقبلوا المشرق للصلاة، فأراد الناس منعهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [دَعُوهُمْ] فصلوا داخل المسجد⁴.

وقد استخلص ابن القيم من هذه القصة صورا من الفقه منها: "جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين، وفيها: تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم أيضا إذا كان ذلك عارضا..."⁵.

¹ - صحيح البخاري، كتاب: الجزية، باب: المودعة والمصالحة مع المشركين بالمال وغيره، وإثم من لم يف بالعهد، حديث رقم: 3173 (101/4).

² - جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/1، 1420هـ. (409/5).

³ - البقرة: 255.

⁴ - الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت - ط/1، 1968م (357/1). سيرة ابن هشام (574/1). زاد المعاد (550/3).

⁵ - زاد المعاد (557/3 - 558).

وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران كتاباً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومما جاء فيه: "ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدتهم وبيعهم، لا يغير أسقف عن سقيفاه، ولا راهب عن رهبانيته، ولا واقف عن وقفانيته، وأشهد على ذلك شهوداً"¹.

إن هذا العهد كما يقول الدكتور توفيق الواعي: "يشمل كل الرعايا النصراني، كهنة ورهبانا وراهبات، وهو يضمن لهم الحماية والأمن حسب مشيئتهم، وبالمثل يحمي كنائسهم ومساكنهم وأماكنهم، وكذلك يحمي من يزورها"².

وعموماً فإن النبي صلى الله عليه وسلم — بالإضافة إلى ما مر — كثيراً ما كان يوصي بأهل الكتاب، ويحذر من ظلمهم، والتضييق عليهم في أمورهم، ويتوعد على ذلك بأشد العقاب، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: [لَا مَن ظَلَمَ مَعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بغير طيب نفس، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]³.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لَمَنْ قَتَلَ مَعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا⁴.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [لَا مَن قَتَلَ مَعَاهِدًا لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَقَدْ خَفَرَ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَلَا يَرِحْ رِيحُ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا]⁵.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَمَنْ قَتَلَ مَعَاهِدًا فِي غَيْرِ كُنْهِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ⁶.

¹ - الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر — بيروت — ط/1، 1968م. (358/1).

² - الإسلام في العقل العالمي، توفيق الواعي، دار الوفاء — مصر — ط/1، 1410هـ (ص: 106).

³ - سنن أبي داود، كتاب: الخراج والفيء والإمارة، باب تَعْيِيرُ أَهْلِ الذِّمَّةِ إِذَا اخْتَلَفُوا بِالتَّجَارَاتِ، حديث رقم: 3052 (658/4). قال الحافظ العراقي: هذا إسناد جيد، وقال السخاوي: وسنده لا بأس به.

⁴ - صحيح البخاري، كتاب: الجزية، باب: إثم من قتل معاهداً بغير جرم، حديث رقم: 3166 (99/4).

⁵ - المستدرک للحاکم، كتاب: الجهاد، حديث رقم: 2581 (138/2). مسند أبي يعلى، مسند أبي هريرة، حديث رقم: 6452 (335/11). سنن الترمذي، أبواب: الديات، باب ما جاء في من يقتل نفساً معاهدة، حديث رقم: 1403 (20/4).

⁶ - المستدرک للحاکم، كتاب قسم الفيء، حديث رقم: 2631 (154/2). وقد علق الحاکم عليه بقوله: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. سنن أبي داود، كتاب: الجهاد، باب: في الوفاء للمعاهد وحرمة ذمته، حديث رقم: 2760 (389/4).

وعن أبي بشر قال: سمعت سعيد بن جبير، عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لِمَنْ سَمَعَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا دَخَلَ النَّارَ¹، ومعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم (سَمَعَ) أي "أسمعه ما يؤدي، وهذا دليل واضح في التحريم للأذى"².

نخلص في نهاية هذا الموضوع، إلى أن أهل الكتاب في الإسلام لهم مكانة تميزهم عن غيرهم من أصحاب الديانات الوثنية الأخرى، لذلك ميزهم النبي صلى الله عليه وسلم بتعامل خاص، وترك في أمته وصايا تحذر من ظلمهم، والتعدي عليهم في معتقداتهم أو أرواحهم أو أموالهم أو أعراضهم... حتى صارت وصاياهم بأهل الكتاب مضرب مثل في عدل الإسلام، ورحمته، وإنسانيته؛ ومعلوم أن المسلمين في علاقاتهم بأهل الكتاب لم يكونوا يتصرفوا بعيدا عن هذا الهدي النبوي، بل كانوا حريصين على تنفيذ تلك الوصايا باعتبارها نصوصا مقدسة ترشد المسلم إلى المنهج القويم في التعامل مع مواطنيه من أتباع الشرائع السماوية الأخرى، بما يضمن استقرار المجتمع، وتمتع سائر أطيافه بالحرية والكرامة الإنسانية.

وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين، والحمد لله رب العالمين.

¹ - صحيح ابن حبان، كتاب: السير، باب: ذكر إيجاب دخول النار لمن أسمع أهل الكتاب ما يكرهونه، حديث رقم: 4880 (238/11). وقد علق عليه شعيب الأرناؤوط بقوله: إسناده صحيح على شرطهما.

² - البدر التمام شرح بلوغ المرام، الحسين بن محمد بن سعيد اللاعي، تحقيق: علي بن عبد الله الزين، دار هجر، ط/1، 1428هـ (298/10).

تجليات الدبلوماسية الروحية في الفعل النبوي الشريف: قراءة في مواقف.

ذة. أسماء المصمودي.

الرابطة المحمدية للعلماء.

لا مرأى في أن الدعوة المحمدية شكلت منهجاً متكاملًا ومتناسقاً بدءاً من الجمع بين الدين والدولة أو الديني والمدني، فقد أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم لدولة تتكامل فيها الأبعاد الإنسانية والقيمية والأخلاقية، إذ كان التشريع النبوي تشريعاً إلهياً بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْصُفُ عَنِ الْقَوْمِ إِنَّهُ هُوَ إِلَهٌ وَحْدٌ يُوحَىٰ﴾¹، تشريع مؤيد بالوحي الإلهي، هذا التأييد الذي من شأنه أن نقف على مواطن الحكمة فيه، لأن التعامل مع التشريعات النبوية أقوالاً وأفعالاً وتقريرات، لا يمكن أن تقتصر من خلاله على البعد التعبدية فقط، وإلا لكان القرآن كافياً لتحقيق هذا البعد، ولكن الغاية من السنة، هو الالتفات إلى الرسالة والنبوة، وكذا الحكمة والعقلنة والسلامة في تسطير خطوات عيش كريم للإنسانية جمعاء، ثم التنزيل الحي لما جاء في القرآن الكريم، لتحقيق بذلك القيمة الاستخلافية في الأرض، والخلافة المقصودة في الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾²، هي الخلافة بالأخلاق المحمدية، تلك الأخلاق التي بدأ التأسيس لها منذ آدم عليه السلام إلى أن تممها محمد صلى الله عليه وسلم بمقتضى قوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"³.

من ثمة يروم هذا المقال - خاصة ونحن على مشارف الاحتفال بمولده المشرف - استحضار مواقف تعاملية من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الآخر سواء في إطار اختلاف الديانة أو اختلافها، إذ أن الاحتفال بمولده عليه الصلاة والسلام لا يشرف ولا يحقق مقصديته التربوية إلا بتمعن سيرته العطرة، وسبر أغوار الدبلوماسية النبوية القيمية والتربوية لنستخلص منها قيماً تربوية نحرص على تفعيلها لتحقيق تنمية ذاتية وإنسانية ترقى بالمجتمع في ضميره الأنا وضميره نحن،

¹ - سورة النجم، الآية 3-4.

² - سورة البقرة، الآية: 29.

³ - المستدرک علی الصحیحین، کتاب آیات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي دلائل النبوة، رقم: 4221.

كما تسهم في إعادة صياغة جديدة لمفهوم الديني والمدني في العالم الإسلامي، صياغة تفاعلية وتفعيلية، أكثر منها تعريفية تاريخية لبلوغ رفعة ورقي في العيش والتعامل كما أراد لنا ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحافظ على البعد الإنساني التأسيسي الذي انطلقت منه الدعوة المحمدية. الإشكال: ماهي تجليات الدبلوماسية الروحية أو ما أود أن اصطلح عليه بالدبلوماسية المؤيدة في الفعل النبوي الشريف؟

من الطبيعي أنه لا يمكن استقصاء كل المواقف لأن السيرة النبوية الشريفة عامرة بها ولكن سأكتفي بثلاثة منها مما يفي بإبراز معالم الطرح الذي أتبناه خلال هذا المقال. انطلق هذا المقال من كلمات مفاتيح هي كالآتي:

الدبلوماسية الروحية

الفعل النبوي الشريف

قراءة في المواقف

وظفت كلمة فعل في العنوان وقصدت ذلك إذ لم أستعمل كلمة العمل لغاية كامنة في معناها اللغوي:

فالفعل هو عمل لا يمتد في الزمان ولا يأخذ وقتاً ولا يُخطط له بل يأتي مصادفة، أما العمل فهو الفعل الذي يمتد في الزمان ويأخذ وقتاً طويلاً ويُخطط له.

قال الراغب الأصبهاني في مفردات القرآن: الفعل: التأثير من جهة مؤثر وهو عام لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعلم أو غير علم وقصد أو غير قصد ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات والعمل مثله والصنع أخص منهما، والفرق بين الفعل والعمل: أن العمل إيجاد الأثر في الشيء . يقال: فلان يعمل الطين خزفاً ويعمل الخوص زنبيلاً والأديم سقاء . ولا يقال: يفعل ذلك لأن فعل الشيء عبارة عما وجد في حال كان قبلها مقدوراً سواء كان عن سبب أو لا؛ الفعل يدخل فيه القول وعمل الجوارح، والعمل لا يدخل فيه القول على الإطلاق¹، والفعل هو الأنسب للمواقف.

تعريف كلمة موقف: المراد بها في سياق المقال تأهب أو استعداد عقلي لمعالجة تجربة أو أمر من الأمور، والمقصود هو التطرق من حيث كونه صلى الله عليه وسلم كان هو صاحب الرأي

¹ - ينظر في ذلك الفروق اللغوية لأبي الهلال العسكري صص. 134-135، المقابسات لأبي حيان التوحيدي، ص. 587، الراغب الأصبهاني في المفردات في غريب القرآن، ص. 587.

والفصل في نوازل معينة، والفصل فيها موقف ورأي، واتخاذ موقف بمعنى إصدار قرار والرجل الموقَّف هو الرجل المحنك المجرب، وموقف رجل على الحق أي: ذلول به.¹

لذلك يروم هذا المقال قراءة بعض من مواقفه صلى الله عليه وسلم وقراراته التي اتخذها بقريحته المتصلة وسريرته المفتوحة على آفاق نورانية مكنته من السداد والتوفيق.

تعريف الدبلوماسية: براعة التعامل مع الآخرين، طريقة تعامل بين الناس تقوم على التوصل إلى الهدف بوسائل بعيدة عن العنف تتسم باللباقة والدهاء، نقول يستخدم دبلوماسيته في تحقيق الأهداف.² وقد ارتأيت أن أعرف الدبلوماسية الروحية كونها منسوبة إلى الروح، والروح هي كل ما يحصل به الحياة، "وقال بعضهم هي شعاع الحقيقة، وفي الحديث: "تَحَابُّوا بِذِكْرِ اللَّهِ وَرُوحِهِ: أَرَادَ مَا يَحْيِي بِهِ الْخَلْقَ وَيَهْتَدُونَ فَيَكُونُ حَيَاةً لَهُمْ".³

الروحية: قلنا نسبة إلى الروح، ويقول في تعريفها عبد الحق بن سبعين: "الروح على مذهبي هوية هويتها لهدف. والروح على مذهبي إنية إنيتها سلف. ونقطة تتقطع بزيادة الخط ولا تحتل في وسطها وآخرها اللفظ"، ثنائية الهوية والينية والهدف والسلف، فإنيتها سلف وهويتها هدف، وقد اصطلحت على الدبلوماسية الروحية بالدبلوماسية المؤيدة لتأييدها في إنيتها ووجودها سلفاً، ولهويتها الهادفة سلفاً وخلفاً، وكل بتأييد من النور الأزلي والهوية القديمة؛ الحق عز وجل، والتأييد: "مصدر أيدته أي قوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أُيُتِ كُلُّ رُوحٍ الْقُدُسِ﴾، وقرئ إذ أيدتك أي قويتك، من أيدته على فعلته"⁴ فهو صلى الله عليه وسلم مؤيد على دبلوماسيته.

● الدبلوماسية المؤيدة قسمان:

- دبلوماسية مؤيدة بالوحي.
- دبلوماسية مؤيدة بالاتصال؛ اتصال القلب بتأييد روحي.
- وهاته المؤيدة بالاتصال: ساقسمها إلى أربعة أنواع: دبلوماسية التأسيس ودبلوماسية الاستشراف ودبلوماسية التمكين والدبلوماسية الموازية.

❖ دبلوماسية التأسيس: من أكبر تجلياتها صحيفة المدينة؛ وقد كانت أول دستور للدولة الإسلامية، وظاهر مقومات صحيفة المدينة أو الوثيقة أنه أساس لا بد منه لتطبيق أحكام الشريعة

¹ - معجم المعاني، مادة وقف.

² - معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب القاهرة، مصر، ط.1، 2008، ج.1، ص. 723.

³ - لسان العرب: مادة روح.

⁴ - لسان العرب: مادة أيد.

الإسلامية في المجتمع، إذ تقوم في مجموعها على فكرة التأسيس لوحدة الأمة الإسلامية وما يتعلق بها من البنود التنظيمية الأخرى التي لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الدبلوماسية النبوية والسياسة الحكيمة التي تروم التأسيس لأرضية يستقر عليها المجتمع الإسلامي خاصة والكنه الإنساني عامة، ومن هذه الوثيقة وبنودها تسقط دعوى من ينعتون الدين الإسلامي بكونه خاص بعلاقة العبد بربه، إذ قامت الدولة الإسلامية منذ بزوغ فجرها على تسيير دبلوماسي روحي مؤيد باتصال قلب مشرع أنظمتها بربه، فكان ذلك التسيير مراعيًا لحقوق الرب والعباد إذ لا ضمانة لتطبيق العدل إلا على أساس قيام معنى الولاء والتناصر بدافع من الشعور القلبي.

❖ دبلوماسية التمكين: ونستشف معالمها بعد رسوخ ربوع وأركان الدولة الإسلامية، ومن تجلياتها زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من جويرة رضي الله عنها إثر انتصار المسلمين في غزوة بني المصطلق في شعبان من السنة السادسة للهجرة، فهذه كانت أسيرة، لكنها بنت سيد قومها، فتزوجها النبي وتآلف قلب قومها، وأطلق سراحهم جميعاً وأسلموا جميعاً، هذه حكمته صلى الله عليه وسلم من حيث حفظ الكرامة، إذ رام صلى الله عليه وسلم أمران اثنين هما من صلب الدبلوماسية؛ أولهما حفظ كرامة الأسياد وهذا من باب العرف ومن ثمة فالعمل وفقه من أجل الدبلوماسية أمر مرغوب ما لم تكن فيه مخالفة شرعية، والأمر الثاني إعتاق رقاب لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفرض على أصحابه عتقها خاصة بعد نزول سورة الأنفال، من ثمة قام بفك أسرى بني المصطلق بدبلوماسية استثمرت تمكن محبته من قلوبهم فما كان منهم إلا أن ضحوا بأسراهم تأديبا مع جنباه الشريف، حيث كان بإمكان رسول الله أن يطلق سراحها، غير أنه أثر عليه الصلاة والسلام أن يتم ذلك بملء اختيار أصحابه، إذ ما أن بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوجها حتى قالوا: أصهار رسول الله عندنا، فأطلقوا سراحهم جميعاً، لذلك قالوا: أعتق الله بها مئة من أهل بيت قومها، فما كانت امرأة مباركة على قومها كهذه المرأة، وكذلك كانت زيجات رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إما تأليفاً للقلوب، أو ترجيحاً لمصلحة إيمانية راجحة، أو سعياً لمصلحة دعوية كبيرة.

❖ دبلوماسية الاستشراف: ومن تجلياتها صلح الحديبية في شهر ذي القعدة من نفس السنة، الذي كان في الأصل القيام بعمره بناء على رؤيا كان قد رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير أنها لم تتم وبُذلت بصلح الحديبية بناء على اجتهاد دبلوماسي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفق رؤية بدت في شكل تنازلات كما فهمها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بينما كانت منه

صلى الله عليه وسلم استشرافا سياسيا ودبلوماسيا يروم النتائج المستقبلية وليس الآنية، وقد جاء الوحي بعدها بسورة الفتح لطمأنة الصحابة رضوان الله عليهم وتأيد الدبلوماسية النبوية لمن لم يقتنع بالفعل النبوي، تأكيدا على أن دبلوماسيته صلى الله عليه وسلم دبلوماسية مؤيدة باتصال رוחي يضمه صفاء سريره عليه السلام وإخلاص نيته وسمو همته ورفيع أخلاقه، وهذا ما يؤكد قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الرد على عمر رضي الله عنه حينما جاءه معترضا: أيها الرجل - يقصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه - إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصي ربه، وهو ناصره، استمسك بعِزِّهِ¹. وفي قول أبي بكر رضي الله عنه تتجلى معالم الدبلوماسية المؤيدة النبوية، إذ كان رضي الله عنه أعرف الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ينهل من كل ما هو رוחي منه عليه الصلاة والسلام ليقينه التام وتصديقه الكامل في التأيد الرباني للفعل النبوي الشريف.

وتتجلى كذلك الدبلوماسية النبوية في هذا الصلح في مواقف منها:

- إحرامه صلى الله عليه وسلم بذئ الحليفة رغم أن أقرب مكان للإحرام كان هو الجحفة حتى يأمن الناس من حربه: مؤشر دبلوماسي وتواصلي.
- في رد المسلمين على الكفار بمقتضى معاهدة الصلح إعمار للبيت وزيادة خير له في الصلاة في المسجد الحرام: مؤشر دبلوماسي استشرافي.
- في قوله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمانات الله تعالى، وفي رواية: "يسألوني فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها"²، تقديم العدو في المقترح دبلوماسي غايتها الجنوح للسلم لتحقيق النصر المؤجل وتعزيز دولة الإسلام والحفاظ على المجتمع المدني واحتضانه تحت عروة الإسلام، إذ دخل معظم من كان في صلح الحديبية للإسلام في فتح مكة.

تلك التنازلات التي قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء كتابة معاهدة صلح الحديبية من كتابة باسمك اللهم عوض باسم الله الرحمن الرحيم، وكتابة محمد بن عبد الله عوض رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أثقل على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، عكست الدبلوماسية النبوية الشريفة مراعاة للمشاركين المتعاقدين والمتعاهدين بما يقتضيه حال الحرب

¹ - صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والسير، رقم: 2731-2732.

² - سيرة ابن هشام، ج. 3، ص. 834.

وحال السلم، فبفضل رؤيته الروحية والمؤيدة وبقدم راسخة تمكن صلى الله عليه وسلم من حقن الدماء وضمان الفضل الآجل ولو في رد الفئة المسلمة على أهلها، إذ عرف صلى الله عليه وسلم أن من ذاق حلاوة الإيمان استحال في حقه أن يعود للكفر، فقبل شرط رد من أتاه مسلماً على أهله وهو ما تحقق فعلياً من خلال اجتماع من ردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهلهم فيما يناهز ثلاثمائة مقاتل قطعوا عن عير قريش المرور إلى الشام، مما جعل قريش يتضرعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل من أتاه مسلماً، فاستدرجهم عليه الصلاة والسلام بحنكة إلى أن يتنازلوا عن أصعب بند في معاهدة صلح الحديبية على نفس المسلمين آنذاك دون الجنوح إلى الحرب، فكانت بذلك دبلوماسية رسول الله صلى الله عليه وسلم دبلوماسية استشرافية مؤيدة.

ومن هذه المواقف تتجلى حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم وحنكته وعظيم سياسته للأمر، حين يتنازل لأعدائه وخصومه هذا التنازل، إضافة إلى بصره النافذ وعلمه ببواطن الأمور، حتى كأنه يعرف ما ستؤول إليه الأمور في المستقبل القريب، من الفتح ودخول قريش في دين الله أفواجا، ويظهر كذلك حرصه صلى الله عليه وسلم على تعظيم حرمة الله وعلى مصلحة الدعوة، وقد كان أخذ على نفسه ألا يرد على قريش خطة تهدف وتؤدي إلى ذلك، بل نجده يوافق على ما يملونه من شروط، ويلين عند تصلبهم وتعتنتهم، تنفيذاً لذلك العهد. وقد ذكر في المواهب أن حث عمر بن الخطاب على السؤال لم يكن شكا بل كان طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثاً على إذلال الكفار وظهور الإسلام كما عرف في خلقه، وقوته في نصرة الدين وإذلال المبطلين، وأما جواب أبي بكر لعمر رضي الله عنهما بمثل جواب النبي صلى الله عليه وسلم، فهو من الدلائل الظاهرة على عظم فضله، وبارع علمه، وزيادة عرفانه، ورسوخه، وزيادته في ذلك على غيره.¹

❖ الدبلوماسية الموازية: وهي التي تتوقف على فعل الآخر: وذلك امتثالاً لأمر الله تعالى كما في

الآيات الكريمة:

﴿وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾²

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِصُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِصِينَ﴾³

¹ - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد القسطلاني، شرحه وعلق عليه مأمون بن محي الدين بن جنان، دار الكتب العلمية، بيروت، ج. 1، ص. 276.

² - سورة الأنفال: الآية: 62.

³ - سورة الممتحنة، الآية: 8.

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَارُ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ١ ﴾

فتكون ردة فعل النبي صلى الله عليه وسلم بناء على فعل الآخر، أي بموازاته لكن باستحضار قيم ثلاث: التقوى والقسط والإحسان وهذا شرط مشروط في الدبلوماسية الموازية حتى تظل تحت سترها الروحاني المتخلق.

تجلت الدبلوماسية الروحية في أسمى معانيها في العمل النبوي الشريف المؤيد بالوحي وكذا في الفعل النبوي الشريف المؤيد بالاتصال، هذا الاتصال الذي يمكنه التحقق في كل من سعى نحو تصفية باطنه وتوجيهه إلى تمثل السيرة النبوية والاقتداء بصاحبها ومن ثمة نشدان كمال الأخلاق الذي به تتحقق الدبلوماسية الروحية السديدة ذات النفع المتصل والمتواصل.

إن هذا البعد الدبلوماسي خاصة والتربوي عامة في المنهج الدعوي، ما أحوجنا إليه اليوم بعد ما تفشى في العالم العربي عامة والإسلامي خاصة من معالم الغلو والتطرف التي ألحقت بالإسلام ما ليس منه، وكذلك الفرقة والغربة التي أصبح يعيشها الإنسان بين ذويه من جراء الابتعاد عن أساليب تربوية اعتمدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمنت للإنسانية جمعاء الحياة السليمة المتوازنة التي تحقق لنا مفهوم الخلافة المخلقة.

¹ - سورة البقرة، الآية 193.

ديوان العدد

مَوْلِدُ الْهُدَى وَالنُّورِ

الشاعر محمد البلغمي

فاس.

الْفَجْرُ أَشْرَقَ بَعْدَ طُولِ ظِلَامٍ مُتَأَلِّقًا بِضِيَاءِ الْبَسَامِ
 وَأَسَابَ فِي دُنْيَا الْوُجُودِ شُعَاعُهُ فَطَوَى الظَّلَامَ بِنُورِهِ الْمُتَرَامِي
 وَتَبَسَّمَ الزَّهْرُ النَّضِيرُ عَلَى الرَّبِّي مُتَضَوِّعًا بِالطَّيِّبِ وَالْأَسَامِ
 وَالْكَوْنُ هَلَلٌ .. وَالْمَلَائِكُ غَرَّدَتْ فِي أَفْقِهِا بِرَوَائِعِ الْأَنْعَامِ
 لِلَّهِ مِنْ يَوْمٍ تَعَظَّمْ قَدْرُهُ وَعَلَتْ مَكَائِنُهُ عَلَى الْأَيَّامِ
 يَوْمٌ بِهِ وُلِدَ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى مَنْ سَادَ كُلَّ الْعُرْبِ وَالْأَعْجَامِ
 خَشَعَتْ لِمَوْلِدِهِ الدُّنْيَا مِنْ هَيْبَةٍ وَخَبَا لَهَيْبِ الشُّرْكِ بَعْدَ ضِرَامِ
 هَذَا ابْنِ أَمْنَةِ الْيَتِيمِ قَدْ انْجَلَى لِلنَّاسِ نُورَ مَحَبَّةٍ وَسَلَامِ
 أَلَّلهُ شَرَفَهُ ، وَآزَرَ يُثَمِّمَهُ وَأَعَدَّ لِحِمَايَةِ الْأَيَّامِ
 وَحَبَاهُ مِنْ دُرَرِ الْبَيَانِ بِلَاغَةً يَعْنُو لِقُوَّتِهِا ذُوو الْأَفْهَامِ
 مَا كَانَ يَنْطِقُ عَنْ هَوَى فِي قَوْلِهِ أَوْ يَنْسُجُ الْأَقْوَالَ مِنْ أَوْهَامِ
 بَلْ كَانَ بِالْوَحْيِ الطُّهُورِ مُعَزَّزًا مِنْ رَبِّهِ ، وَبَصَادِقِ الْإِلَهَامِ
 هَذَا الَّذِي حَقَّنَ الدِّمَاءَ بِرَأْيِهِ وَالْقَوْمُ بَيْنَ لَجَاجَةٍ وَخِصَامِ
 قَدْ جَاءَ لِلدُّنْيَا بِخَيْرِ شَرِيعَةٍ تَزِدَانُ بِالْقُرْآنِ وَالْأَحْكَامِ
 وَجَدَ الْقُلُوبَ مِنَ الضَّلَالِ تَحَجَّرَتْ وَالْجَهْلُ قَائِدُهَا بِأَقْوَى زِمَامِ
 وَالنَّاسُ لَا دِينَ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُمْ وَحَيَاتُهُمْ فَوْضَى .. بِغَيْرِ نِظَامِ
 فَجَلَا عَنِ الْأَفْكَارِ لَيْلَ ضَلَالِهَا وَأَنَارَهَا بِهَدَايَةِ الْإِسْلَامِ
 وَبَنَى النُّفُوسَ عَلَى التَّقَى فَتَأَلَّفَتْ وَغَدَتْ تَعِيشُ بِوَحْدَةٍ وَوِئَامِ

كَمْ ذَا تَحَمَّلَ فِي الرِّسَالَةِ مِنْ أَدَى
أَغْرُوهُ بِالْذُّنُوبِ فَلَمْ يَخْضَعْ لَهُمْ
مَنْ كَانَ لِلَّهِ الْعَظِيمِ مُنَاصِرًا
الْفَاتِحُ الْمَغْوَارُ مَنْ أَرْسَى الْهُدَى
وَجَزَى الْعِدَى بِالْعَفْوِ حِينَ اسْتَسْلَمُوا
وَأَعَدَّ بِالْإِيمَانِ أَعْظَمَ أُمَّةٍ
وَبَنَتْ بِدِينِ اللَّهِ خَيْرَ حَضَارَةٍ
دِينٌ عَلَى التَّقْوَى يَقُومُ بِنَاؤُهُ
فِيهِ السَّعَادَةُ لِلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
وَبِهِ الْعُلُومُ لِمَنْ يُرِيدُ تَعَمُّقًا
بِكِتَابِهِ خُتِمَتْ رَسَائِلُ رَبِّهَا
طُوبَى لِمَنْ لَمْ تُلْهِهِ عَنْ دِينِهِ
طُوبَى لِمَنْ عَرَفَ الْإِلَاهَ بِقَلْبِهِ
وَمَضَى عَلَى نَهْجِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
فَاللَّهُ لَا يَهَبُ الرِّضَا إِلَّا الَّذِي
يَارِبُ فِي عِيدِ الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى
جَاشَتْ عَوَاطِفُ مُهْجَتِي فَسَكَبْتُهَا
إِنِّي دَعَوْتُكَ خَاشِعًا مُتَضَرِّعًا
فَإَمْنٌ بِفَضْلِكَ يَا إِلَاهُ.. وَقَوْنِي
وَأَعِدْ إِلَى الدِّينِ الْحَنِيفِ بِهِاءَهُ
وَاجْمَعْ شَتَاتَ الْمُسْلِمِينَ بِوَحْدَةٍ

مُتَمَسِّكًا بِالْوَحْدِ الْعَالَمِ
وَمَضَى لِأَمْرِ اللَّهِ فِي إِقْدَامِ
نَجَّاهُ مِنْ شَرٍّ، وَكَيْدِ لُئَامِ
وَقَضَى عَلَى الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ
فَجَنَى بِهِ مَا لَمْ يَلْ بِحُسَامِ
فَهَرَّتْ جُيُوشُ الْفُرْسِ وَالْأَرْوَامِ
فِيهَا تَمَتَّعَ سَائِرُ الْأَقْوَامِ
وَعَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ وَالْإِكْرَامِ
وَطَهَّرَ أَرَاةَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ
فِي كَشْفِ سِرِّ الْأَرْضِ وَالْأَجْرَامِ
لِيَكُونَ لِلْإِنْسَانِ مِسْكٌ خَتَامِ
ذُنُوبًا زَخَارِفُهَا مِنْ الْأَحْلَامِ
مُتَذَكِّرًا فِي يَقْظَةٍ وَمَنَامِ
مُتَنَائِيًا عَنْ شُبهَةٍ وَحَرَامِ
أَدَى الْفُرُوضِ جَمِيعِهَا بِتَمَامِ
نَبْعِ الْحَنَانِ وَوَاكِيلِ الْأَرْحَامِ
مَنْظُومَةً بِمَحَبَّتِي وَهَيْئَامِي
لَكَ يَا مُجِيرَ الْخَلْقِ مِنْ أَسْقَامِ
بِالصَّبْرِ عِنْدَ شِدَائِدِ الْآلَامِ
لِتُسَوِّدَ رَأْيُتُهُ عَلَى الْأَعْلَامِ
تَقْوَى بِحَبْلِكَ فِي مَدَى الْأَعْوَامِ

وَأَغِثْ فِلِسْطِينَ السَّالِيَةَ - إِنَّهَا
وَأَنْصُرْ مَلِيكَ بِلَادِنَا يَا رَبَّنَا
فَعَلَى يَدَيْهِ تَوَحَّدَتْ أَوْطَانُنَا
وَعَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْوَرَى
قَلْبُ الْعُرُوبَةِ - مِنْ يَدِ الْإِجْرَامِ
شَمْسُ الْمُلُوكِ وَسِبْطُ خَيْرِ إِمَامِ
وَبَجْهُهُ بَلَغَتْ لِكُلِّ مَرَامِ
عَدَدَ النُّجُومِ تَحِيَّاتِي وَسَلَامِي

فهرس العدد

- 7..... الافتتاحية.
- 9..... مقالات العدد.
- 11..... إحياء الرحمة المحمدية مقصد من مقاصد الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف.
- ذ. عبد الغني العمومري
- 21..... مقاصد مشيخة المغرب في الاحتفال بالمولد.
- ذ. عبد القادر بيطار
- 27..... مواصفات شاعر المدحة النبوية.
- ذ. محمد الطبراني
- 41..... الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف في الرحلة الحجازية المغربية.
- ذ. محمد الأندلسي
- 49..... المولد النبوي فرصة لتجديد التعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم
- ذ. عبد الله الشريف الوزاني
- 57..... جوانب من البيداغوجية الروحية وراء الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.
- ذ. محمد غاني
- 65..... الاحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم فرحا وسرورا.
- ذ. سعيد المغناوي
- 71..... شعر المديح النبوي: خصائصه وأغراضه.
- ذ. محمد الحجوي - سلا.
- 85..... الاحتفال بعيد المولد النبوي عند المغاربة: التاريخ والمقاصد.
- ذ. منير روكي.
- 95..... المقالات الداعمة.

- 97.....ملاح من المنهج النبوي في التعامل مع أهل الكتاب
ذ. محمد الدرداري
- 105.....تجليات الدبلوماسية الروحية في الفعل النبوي الشريف: قراءة في مواقف
ذ. أسماء المصمودي.
- 113.....ديوان العدد
- 115مَوْلِدُ الْهُدَى وَالنُّور.
الشاعر محمد البلغمي

شروط النشر بالمجلة

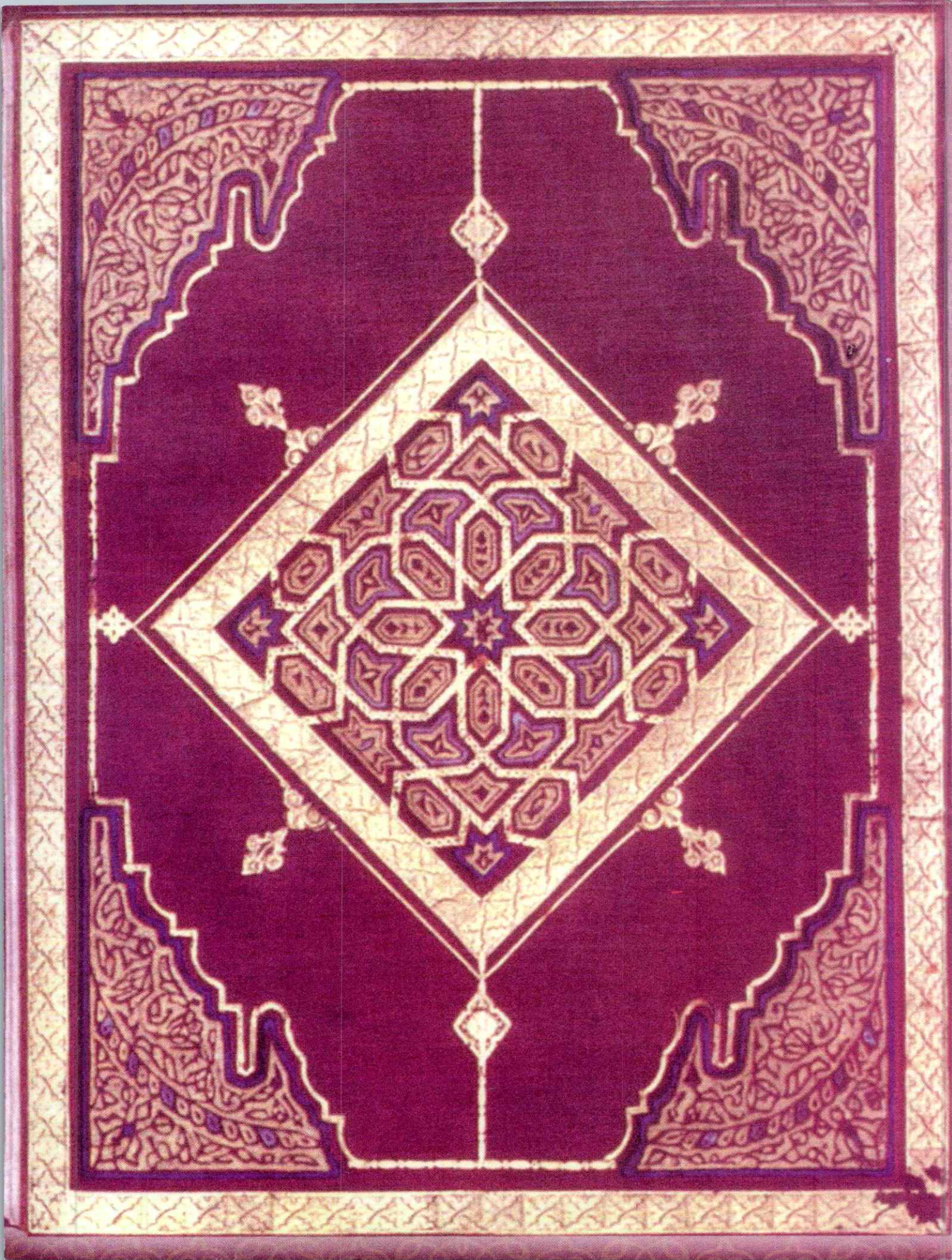
تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

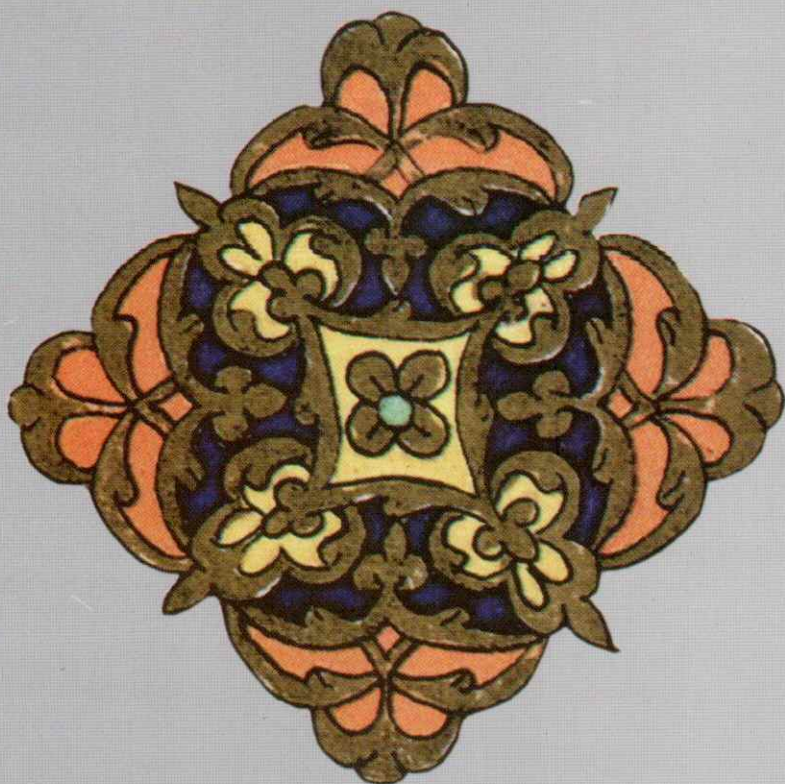
- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلّة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- البريد الإلكتروني هو : alami hamid49@gmail.com
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاور الأعداد المقبلة

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاورين الآتيين:

1. المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي.
2. فقه العمران في المذهب المالكي.





دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والفكر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية



مطبعة وزارة الأوقاف